

سُورَةُ الْفَلَقِ

حِينَ يَشُقُّ النُّورُ جِدَارَ الْخَوْفِ

رِحْلَةُ تَدَبُّرٍ فِي مَعَانِي الْإِسْتِعَاذَةِ،
وَحَفَايَا الشَّرِّ، وَسَكِينَةِ الْإِلْتِجَاءِ إِلَى اللَّهِ

رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سُورَةُ الْفَلَقِ

حِينَ يَشُقُّ النُّورُ جِدَارَ الْخَوْفِ

رِحْلَةُ تَدْبِيرِيَّةٍ فِي مَعَانِي الْإِسْتِعَاذَةِ، وَخَفَايَا الشَّرِّ،

وَسَكِينَةِ الْإِلْتِجَاءِ إِلَى اللَّهِ

رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة تمهيدية

حين يَشْقُ النورُ جدارَ الخوف

ليست سورة الفلق خمسَ آياتٍ قصيرة فحسب؛ إنها رحلةٌ قلبٍ يخرج من حصار الخوف إلى سعة الله، ومن التحديق في الشرور إلى الاحتماء بربِّ النور. إنها تعيد ترتيب مشاعر الإنسان حين تضيق به الجهات، وتتكاثر حوله الأخطار، ويعجز عن معرفة الوجوه التي يتخفى خلفها الأذى.

فإنسان لا يخاف الشر وحده، بل يخاف غموضه؛ يخاف ما يراه ولا يقدر عليه، وما لا يراه ولا يعرف من أين يأتيه. وقد يكون احتمالُ الشر في النفس أشدَّ إيلاَمًا من وقوعه في الواقع؛ لأن الخيال يفتح للخوف ألف باب، بينما لا يقع من الأقدار إلا باب واحد. فجاءت سورة الفلق لا لتُخبر الإنسان أن العالم خالٍ من الشر، بل لتُخبره أن الشر - مهما اتسع - ليس بلا ربٍّ، وأن الظلام - مهما اشتد - ليس بلا فلق.

إنها لا تُنكر هشاشتنا، بل تأخذ بأيدينا من داخلها؛ لا تقول لنا: لا تخافوا لأن المخاوف أوهام، ولكنها تقول: إذا خفتم فاعرفوا أين تضعون خوفكم، وإلى من تحملون ضعفكم، وبمن تستعيذون مما لا تستطيعون دفعه.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾

تبدأ السورة بكلمة: ﴿قُلْ﴾.

وكان الخوف إذا تُرك حبيساً في الصدر تمدد، وإذا خرج في صورة استعاذةٍ انكسر. إن الله يُعَلِّمُ نَبِيَّهٖ ﷺ، ويعَلِّمُ كُلَّ قَلْبٍ من بعده، أَلَّا يصمت أمام الوحشة، بل يُسَمِّي ملجأه بلسانه: ﴿قُلْ﴾.

قلها حين تضيق بك الاحتمالات، وحين تشعر بأن وراء الوجوه ما لا تعرف، وحين يرهقك التفكير في الغد، وحين تنام ولا تملك أن تحرس نفسك، وتستيقظ ولا تعلم ما يُدَبِّرُ لك. قلها لا بوصفها حروفاً تُكرَّر، بل بوصفها انتقالاً كاملاً من الاعتماد على قوتك إلى الاعتصام بقوة الله.

﴿أَعُوذُ﴾...

لم يقل: أعلم، ولا: أقدر، ولا: أواجه وحدي. فالاستعاذة اعترافٌ نبيل بحدود الإنسان. وفيها يسقط ذلك الغرور الخفي الذي يوهم المرء أنه قادر على حماية نفسه من كل شيء إذا أحسن التخطيط وأحكم الاحتياط. نعم، يأخذ المؤمن بالأسباب، لكنه يعرف أن الأسباب حُجُبٌ رقيقة، وأن الحفظ في حقيقته من الله.

و﴿أَعُوذُ﴾ فعلٌ قلبٍ يفرُّ من شيءٍ إلى شيءٍ؛ لكنه هنا فرارٌ من كل ما يُخاف إلى الواحد الذي لا يُخاف معه شيء. فالناس إذا خافوا تفرَّقوا بين الأبواب، والمؤمن إذا خاف اجتمعت جهاته كلها في باب الله.

ثم يأتي الاسم الذي يبَدِّد الوحشة:

﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

لم تقل الآية: ربِّ الظلام، مع أن السورة ستذكر الغاسق. بل اختارت من أسماء الربوبية صورة النور وهو يشقُّ الحجب: ﴿رَبِّ الْفَلَقِ﴾. والفلق هو الصبح حين يفلق الله به سواد الليل؛ كأن النهار كان مستترًا وراء جدار الظلمة، ثم شقَّه الله وأخرجه.

وما أعمق أن تستعيز من الشرور ربِّ الفلق! لأن الذي يُخرج الضوء من أحشاء الظلام قادرٌ أن يُخرج الأمن من داخل الخوف، والفرج من قلب الكرب، والعافية من موضع البلاء. والذي يفلق الصبح كل يوم لا يعجز أن يفلق لك من انسدادك طريقًا، ومن حيرتك هداية، ومن حزنك سكينة.

إن الفجر لا يجادل الليل، ولا يصرخ في وجهه؛ إنه يظهر فقط، فيتراجع الظلام. وكذلك نور الله إذا دخل القلب: لا يحتاج إلى ضجيج طويل كي يهزم أوهامه؛ يكفي أن يستيقن القلب أن له ربًّا، حتى تبدأ جيوش الخوف بالانحسار.

ولفظ ﴿رَبِّ﴾ يحمل معنى الرعاية والتربية والتدبير. فأنت لا تستعيز بقوة صمّاء، بل ربِّ يتولّاك، ويراك، ويعلم مواضع ضعفك، ويقودك خلال ظلماتك كما يقود الصبح من رحم الليل. إنه ربُّ الفلق، وربُّ قلبك حين ينتظر فلقه الخاص.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

هذه أوسع استعاذة في السورة؛ استعاذة من كل شرٍّ في كل مخلوق يمكن أن يكون فيه شر.

والدقة القرآنية مدهشة: لم يقل سبحانه: «من شرّ خلقه»، بل قال: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾؛ لأن المخلوقات ليست شرًّا في أصل وجودها، ولكن قد ينشأ منها شرٌّ بحكمة الله وقدره، أو بسوء استعمال الإنسان، أو بما أودع في بعض الأشياء من أذى وابتلاء. فالنار ليست شرًّا محضًا، لكنها تحرق؛ والماء حياة، لكنه قد يُغرق؛ والإنسان مكرّم، لكنه قد يظلم؛ واللسان نعمة، لكنه قد يتحول إلى سكين.

إنها استعاذة من الشر، لا من الوجود؛ ومن الأذى، لا من حكمة الخلق.

وفي كلمة ﴿مَا﴾ مساحة تسع كلّ ما تعرفه وما تجهله. وهذا من رحمة الله؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يحصي مصادر الخطر. قد يحذر عدوًّا ظاهرًا وينسى هوًى خفيًّا، وقد يخاف من شخص ولا يشعر بفكرة فاسدة تنمو في داخله، وقد يحترس من المرض ولا يحترس من اليأس، وقد يخشى الفقر ولا يخشى الغنى إذا أفسد قلبه.

فعلّمنا الله دعاءً لا يحتاج إلى أن نعرف تفاصيل الشرور كلها؛ يكفي أن نعرف مَنْ يحفظنا منها جميعًا.

وما أكثر ما يرهق الإنسان محاولته معرفة كل شيء: مَنْ يكرهه؟ مَنْ يحسده؟ ما الذي يُدبّر له؟ ماذا سيحدث غدًا؟ لكن السورة تعفي القلب من هذا الاستقصاء المستنزف؛ ليس واجبًا عليك أن تكشف كل

ظلمة، بل أن تعرف ربَّ الفلق. وليس مطلوبًا أن تُحيط بمداخل الشر، بل أن تعتصم بمن أحاط بكل شيء علمًا.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾

الغاسق هو الليل إذا اشتدَّ ظلامه ودخل، و﴿وَقَبَ﴾ توحى بالتغلغل والنفوذ؛ ليس ظلامًا يمرّ على السطح، بل ليلاً ينفذ إلى الأشياء ويغمرها.

والليل في ذاته آية من آيات الله، وسكّن ورحمة؛ لكن الخطر يكثر حين تستتر الأشياء، وتغيب الرؤية، وتتحرك الشرور بعيدًا عن الأبصار. ولذلك لم تستعذ السورة من الليل مطلقًا، بل من شرّه ﴿إِذَا وَقَبَ﴾.

وهنا تلامس الآية ليلاً آخر غير ليل الأفق: ليل النفس حين يشتد فيها الحزن، وليل العقل حين تحاصره الحيرة، وليل الحياة حين تُغلق الطرق، فلا يرى المرء ما أمامه ولا يدري أين يضع خطواته التالية.

فكم من إنسانٍ يحمل في داخله غاسقًا لا يراه الناس! يبتسم وفي أعماقه ليلٌ قد وقب؛ يحدث الآخرين، وفي روحه غرفة مطفأة لا يدخلها أحد. تأتي السورة إلى هذا الإنسان لتقول له: إن ربك لم يُسم نفسه هنا ربَّ النهار، بل ربَّ الفلق؛ لأن الفلق هو النور الذي يولد عند أقصى اشتداد الظلمة.

فالليل ليس علامة على غياب الله، بل ميدانٌ تظهر فيه ربوبيته على نحو آخر. وفي النهار ترى الطريق، أما في الليل فتتعلم أن تتق بالهادي. وفي الرخاء ترى النعمة، أما في الشدة فتعرف المنعم.

وربما كان بعض الظلام تربيةً للقلب؛ لينزع ثقته المطلقة بالمبصرات، ويتعلم أن الله تدبيرًا يتحرك وراء ما لا يُرى.

و﴿إِذَا وَقَبُ﴾ تُشْعِرُنَا أَيْضًا بِأَنَّ لِلشَّرِّ لَحْظَةً نَشَاطٍ وَاشْتِدَادًا؛ وَمَنْ فَقِهَ الْقَلْبَ إِلَّا يَسْتَهِينُ بِبِدَايَاتِ الظُّلْمَةِ حَتَّى تَتَغَلَّغَلَ. فَالْفِكْرَةُ السُّودَاءُ إِذَا وَقَبَتْ فِي النَّفْسِ صَارَتْ يَأْسًا، وَالرِّيْبَةُ إِذَا وَقَبَتْ صَارَتْ سُوءَ ظَنٍّ، وَالشَّهْوَةُ إِذَا وَقَبَتْ صَارَتْ عُبُودِيَّةً، وَالْغَضَبُ إِذَا وَقَبَ صَارَ ظُلْمًا. وَمَا أَكْثَرَ الشَّرُورَ الَّتِي تَبْدَأُ خَاطِرًا عَابِرًا، ثُمَّ تُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ الْقَلْبِ حَتَّى تَسْتَقِرَّ فِيهِ!

فَالِاسْتِعَاذَةُ لَيْسَتْ فَقَطْ طَلَبُ حِمَايَةٍ مِمَّا يَحِيطُ بِنَا، بَلْ يَقْظَةُ تَجَاهِ مَا يَحَاوِلُ أَنْ يَتَسَلَّلَ إِلَيْنَا.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾

تَنْتَقِلُ السُّورَةُ مِنَ الشَّرِّ الْعَامِّ، ثُمَّ مِنْ شَرِّ الظُّلَامِ إِذَا اشْتَدَّ، إِلَى الشَّرِّ الْخَفِيِّ الَّذِي يَعْمَلُ فِي صَمْتٍ: ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، وَهِنَّ السَّوَاحِرُ اللَّاتِي يَنْفِثْنَ فِي الْعُقَدِ.

إِنَّهَا صُورَةٌ لِلشَّرِّ حِينَ لَا يُوَاجِهُكَ مُوَاجَهَةً صَرِيحَةً، بَلْ يَخْتَبِئُ، وَيَعْقِدُ، وَيَنْفِثُ. فَالشَّرُّ الظَّاهِرُ يُمْكِنُ أَنْ تَسْتَعِدَّ لَهُ، أَمَّا الشَّرُّ الْمُسْتَتَرُّ فَيُضَاعَفُ ضَعْفُ الْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّهُ يُهَاجِمُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ.

وَفِي الْآيَةِ اعْتِرَافٌ بِحَقِيقَةِ السَّحَرِ وَأَذَاهُ بِإِذْنِ اللَّهِ الْكُونِيِّ، لَكِنَّهَا فِي الْوَقْتِ نَفْسُهُ تَنْتَزِعُ مِنَ النَّفْسِ تَهْوِيلُهُ؛ إِذْ لَمْ تَأْمُرِ الْمُؤْمِنُ بِأَنْ يَغْرُقَ فِي تَتَبُعِ السَّحَرَةِ، وَلَا أَنْ يَفْسِّرَ كُلَّ تَعَثَّرٍ فِي حَيَاتِهِ بِالسَّحَرِ، وَلَا أَنْ

يعيش أسير الظنون. وجّهته مباشرةً إلى الله؛ لأن معرفة الحافظ أهم من معرفة الأذى، والاشتغال بالرب أعظم من الاشتغال بالخوف.

إن التوحيد لا يُنكر وجود الشرور الخفية، ولكنه يمنعها أن تكبر في الوجدان حتى تنازع الله سلطانه. فلا سحر يستقل بالتأثير، ولا عين تتجاوز قدر الله، ولا كيد يخرج عن علمه، ولا عقدة تستعصي على ربّ الفلق.

وإذا كان السحر عقدًا ونفثًا، فإن الاستعاذة حلّ وتسليم. هم يعقدون، والله يحل؛ هم يخفون، والله يعلم؛ هم يكيدون، والله غالب على أمره.

وللآية في وجدان المتدبر إحياء يجاوز الواقعة إلى كل شرٍّ يتسلل إلى الروابط ليعقدها: كلمةٌ مسمومة تُنفث في علاقةٍ صافية، وإشاعةٌ تُلقى بين قلبين، ووسوسةٌ تحوّل المحبة إلى شك، وتحريضٌ يجعل الإخوة خصومًا. فما أكثر النافثين في عُقد المودة، وعُقد الأسرة، وعُقد الجماعة؛ ينفثون كلمةً صغيرة، ثم يتركونها تعمل في القلوب حتى تنفصم الروابط.

لكن ربّ الفلق قادرٌ أن يفلق العقدة كما يفلق ظلمة الصبح، وأن يخرج من انغلاق النفوس وضوحًا، ومن انقباضها صفحًا، ومن تباعدها مودة.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

تُخْتَمُ السُّورَةُ بِشَرِّ يَسْكُنُ قَلْبَ إِنْسَانٍ: الْحَسَدُ.

وَلَعَلَّهُ ذُكِرَ أَحْزِرًا لِأَنَّهُ مِنْ أَخْفَى الشُّرُورِ وَأَشَدِّهَا تَصَاقًا بِالنَّفْسِ. فَالْعَدُوُّ قَدْ تَرَى سِلَاحَهُ، وَاللَّيْلُ تَرَى ظِلْمَتَهُ، أَمَّا الْحَاسِدُ فَقَدْ يَسْتَقْبِلُكَ بِابْتِسَامَةٍ، بَيْنَمَا يَتَمَنَّى فِي قَلْبِهِ زَوَالَ النِّعْمَةِ عَنْكَ.

وَالْحَسَدُ لَيْسَ أَلَمًا بِسَبَبِ فَقْدِ النِّعْمَةِ، بَلْ أَلَمٌ بِسَبَبِ وُجُودِهَا عِنْدَ الْآخَرِ. إِنَّهُ اعْتَرَاضٌ شَعُورِي عَلَى قِسْمَةِ اللَّهِ؛ كَأَنَّ الْحَاسِدَ يَقُولُ بِلِسَانِ حَالِهِ: لِمَاذَا أَعْطَاهُ اللَّهُ؟ وَلِهَذَا يَحْتَرِقُ الْحَاسِدُ بِنِعْمَةِ غَيْرِهِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ شَرُّهُ إِلَى الْمَحْسُودِ. فَكُلَّمَا أَزْدَادَ النَّاسُ نِعْمًا أَزْدَادَ هُوَ عَذَابًا، وَصَارَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَقُودًا لِنَارِهِ الدَّاخِلِيَةِ.

لَكِنَّ الْقُرْآنَ قَالَ: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ أَيَّ حِينَ يَتَحَرَّكُ الْحَسَدُ مِنَ الشُّعُورِ الْكَامِنِ إِلَى الْإِرَادَةِ وَالْفِعْلِ وَالْكِيدِ. فَقَدْ تَعَرَّضَ لِلنَّفْسِ غِبْطَةً أَوْ مَنَافَسَةً أَوْ خَاطِرَةً تَكْرَهَهَا وَتَدْفَعُهَا، أَمَّا الشَّرُّ الْخَطِرُ فَهُوَ أَنْ يُسْتَضَافَ الْحَسَدُ، وَيُغَذَّى، ثُمَّ يَتَحَوَّلَ إِلَى قَوْلٍ أَوْ سَعْيٍ أَوْ إِذَاءٍ.

وَفِي الْآيَةِ تَرْبِيَّةٌ لِلْمَحْسُودِ كَذَلِكَ: لَا تَجْعَلْ خَوْفَكَ مِنَ الْحَسَدِ يُفْسِدُ عَلَيْكَ نِعَمَتَكَ، وَلَا تَتَحَوَّلَ حَيَاتُكَ إِلَى مَرَاقِبَةٍ وَجْهِ النَّاسِ وَقِرَاءَةِ نِيَاتِهِمْ. اسْتَعِذْ بِاللَّهِ، وَخُذْ بِالْأَسْبَابِ الْمَشْرُوعَةِ، ثُمَّ امْضِ فِي حَيَاتِكَ. فَالنِّعْمَةُ الَّتِي وَهَبَهَا اللَّهُ لَا يَحْرُسُهَا قَلْقُوكَ، وَإِنَّمَا يَحْرُسُهَا وَاهِبُهَا.

إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ إِذَا أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ عَاشُوا مُعْتَذِرِينَ عَنِ النِّعْمَةِ، يَخَافُونَ أَنْ يَرَوْهُمْ نَاجِحِينَ أَوْ مُسْرُورِينَ؛ فَتَسْرِقُ مِنْهُمْ خَشْيَةُ الْحَسَدِ

لذة الشكر. والسورة لا تريد منك أن تختبئ من الحياة، بل أن تظهر عبودية الالتجاء: لا تتباه فتستفز النفوس، ولا تجدد النعمة خوفاً منها؛ احمد الله، واستتر بأدب، واستعذ به، وامض.

وفي الوقت نفسه، تحمل الآية مرأةً إلى داخلنا: قبل أن نطلب الحماية من حسد الآخرين، فلنفتش عن بذوره في قلوبنا. هل يؤلمنا أن يُمدح غيرنا؟ هل نبحت عن عيوب الناجحين لنستريح؟ هل نضيق بما أفاضه الله على عبدٍ من عباده؟

إن الاستعاذة الصادقة من الحسد تشمل أن يحفظك الله من حسدٍ يصيبك، ومن حسدٍ ينشأ فيك. فليس أعظم نجاةً من أن يحميك الله من أذى الحاسدين إلا أن يحمي قلبك من أن يكون واحداً منهم.

من الخوف المتشعب إلى الملجأ الواحد

تتعدد الشرور في السورة: شر المخلوقات، وشر الغاسق، وشر النفاثات، وشر الحاسد؛ لكن الملجأ واحد: ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

وهذه هي هندسة الطمأنينة في التوحيد: الأخطار كثيرة، لكن الرب واحد. أبواب الخوف متفرقة، لكن باب النجاة لا يتفرق. وما يتعب النفس ليس كثرة ما تخافه فحسب، بل تفرقها بين ما تخاف؛ فتأتي السورة فتجمع شتات الروح في وجهة واحدة.

إنها لا تعلمنا أن نُنكر الشر، ولا أن نمنحه السيادة؛ لا أن نغفل عنه، ولا أن نفتتن بتتبعه. تضعه في حجمه الحقيقي: موجودٌ لكنه

مخلوق، مؤذٍ لكنه محدود، خفيٌّ لكنه لا يخفى على الله، وقد يعقد لكن ربَّ الفلق يحل، وقد يظلم لكن الصبح آتٍ.

واللافت أن السورة تبدأ بالفلق قبل أن تذكر الظلمات. كأنها تمنحك النتيجة قبل أن تعرض عليك المخاوف: قبل أن تسمع عن شر ما خُلق، وعن الغاسق والنفاثات والحاسد، اعلم أنك واقف في حمى ربِّ الفلق.

إن النور هنا سابقٌ في الذكر، كما أن رحمة الله سابقةٌ لغضبه، وحفظه سابقٌ لخوفك، وعلمه بالشر سابقٌ لاكتشافك له. أنت لا تبدأ معركتك وحيداً ثم تبحث عن الله في آخر الطريق؛ بل تبدأ بالله، ومن بدأ بالله مرَّ خلال ظلمات الدنيا وقلبه معلّقٌ بالفلق.

خاتمة: لكلِّ ليلٍ فلق

سورة الفلق ليست تعويذة تُقال باللسان والقلب شارد، بل ميثاق ثقة بين العبد وربّه. كلما قرأها المؤمن ردَّ الأشياء إلى مقاديرها: تذكّر ضعفه فلم يغتر، وتذكّر ربّه فلم ينهزم.

إنها تقول للمرعوب: لستَ مأموراً أن تكون أقوى من كل ما يخيفك؛ إنما أنت مأمور أن تلوذ بمن هو أقوى من كل شيء.

وتقول للمُحاصر بما يجهله: لستَ مضطراً إلى كشف كل مؤامرة كي تنجو؛ يكفي أن تكون مكشوف القلب بين يدي من لا تخفى عليه خافية.

وتقول لمن طال ليله: لا تجعل الظلام يقنعك بأنه الحقيقة الأخيرة؛
فالليل مهما توغل يحمل في نهايته موضعاً سينشق منه الضوء.

فاقرأها حين تمسي، كأنك تُسلم روحك إلى حارس لا ينام، وقرأها
حين تصبح، كأنك تدخل يومك في جوار الله. وقرأها حين تخاف من
عيون الخلق، ومن خفايا النفوس، ومن تقلب الأقدار، ثم اسكن قليلاً
عند قولك:

﴿يَرْبِّ الْفَلَقِ﴾.

فوراء كل عقدة حلّ، ووراء كل غاسقٍ صبح، وفوق كل حاسدٍ
رب، وفي نهاية كل ظلامٍ فلق.

المقدمة المنهجية

كيف تعيد سورة الفلق بناء الشعور الإنساني أمام الشر؟

هناك سورٌ في القرآن تفتح أمام العقل آفاقاً واسعة من النظر في الكون والتاريخ، وسورٌ تأخذ القلب إلى مشاهد القيامة، وسورٌ تبني منظومة الأخلاق والتشريع، وسورٌ قليلة الكلمات، لكنها تمسُّ أكثر المناطق خفاءً واضطراباً في النفس الإنسانية. وسورة الفلق من هذا القبيل؛ فهي لا تواجه الإنسان في قوته، بل تلقاه في لحظة انكشافه، حين تتراجع ثقته بالأسباب، ويشعر أن في الوجود أشياء لا يراها، وقوى لا يحيط بها، وشروراً قد تأتيه من حيث لا يحتسب.

إنها سورة الإنسان حين تُطفأ المصابيح من حوله، فلا يبقى له إلا نور المعرفة بالله.

خمس آيات فحسب، لكنها ترسم خريطةً كاملة لعالم المخاوف: شرٌّ عام يتوزع في المخلوقات، وظلامٌ يغطي الأشياء فيجبها، وأذى خفيٌّ يعمل وراء الحواس، وحسٌ يسكن الضمائر ثم يتحول إلى فعل. وبين هذه الدوائر المتداخلة يقف الإنسان محدود العلم، محدود القدرة، لا يملك أن يرى كلَّ شيء، ولا أن يتوقع كلَّ شيء، ولا أن يحرس نفسه في كل لحظة.

غير أن السورة لا تتركه داخل هذه الخريطة معزولاً؛ بل تبدأ بتعريفه بالملجأ قبل أن تُعرِّفه بمصادر الخطر:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

فذكرُ الله في السورة يسبق ذكر الشر، وظهور الفلق يسبق دخول الغسق، والملاجئ يُفتح قبل أن تبدأ قائمة المخاوف. وهذه اللحظة في ترتيب الآيات وحدها كافيةٌ لأن تبني في القلب مذهباً كاملاً في مواجهة الحياة: لا تبدأ من الخوف ثم تبحث عن الله، بل ابدأ بالله، وانظر من جواره إلى كل ما تخاف.

فالفرق عظيم بين أن تنظر إلى الله من خلال مشكلتك، وأن تنظر إلى مشكلتك من خلال معرفتك بالله. في الحال الأولى قد تكبر المشكلة حتى تحجب عنك ربك، وفي الثانية يكبر اليقين حتى يُعيد المشكلة إلى حجمها الحقيقي. والشر، مهما اشتد، لا يصير مطلقاً؛ لأنه واقع في ملك الله، محاطٌ بعلمه، جارٍ تحت مشيئته، لا يتجاوز القدر الذي أذن به لحكمةٍ يعلمها سبحانه.

ومن هنا، فإن سورة الفلق ليست نصّاً يُقرأ عند الخوف فحسب، بل منهجٌ لتصحيح معنى الخوف نفسه. فهي لا تعيب على الإنسان أن يشعر بالضعف؛ لأن الضعف جزءٌ من حقيقته، لكنها تنقذه من أن يتحول ضعفه إلى عبوديةٍ لما يخشاه. وهناك فرقٌ بين خوفٍ يعيدك إلى الله، وخوفٍ يقطعك عنه؛ الأول يوقظ فيك الافتقار، والثاني يملأ صدرك بالأوهام. الأول يجمع القلب، والثاني يبده بين الاحتمالات. الأول ينتهي إلى الاستعانة، والثاني ينتهي إلى الوسواس.

إن المؤمن ليس إنسانًا لا يخاف، بل إنسانٌ يعرف كيف يهدي خوفه إلى الله.

والاستعاذة في حقيقتها ليست عبارةً تقال، وإنما حركة وجودية كاملة؛ خروجٌ من حول النفس وقوتها إلى حول الله وقوته، ومن ضيق ما يراه الإنسان إلى سعة ما يعلمه الله، ومن قلق التدبير البشري إلى طمأنينة الربوبية. فإذا قال العبد: ﴿أَعُوذُ﴾، فقد أعلن أنه لا يكتفي بفهم الخطر، بل يطلب جوار الله منه؛ ولا يكتفي بتحليل الشر، بل يتحصن بربه؛ ولا يجعل نجاته ثمرةً لذكائه وحده، بل أثرًا من آثار الرحمة الإلهية.

ولا تعني الاستعاذة تعطيل الأسباب، ولا الانسحاب من مواجهة الحياة، ولا انتظار النجاة بلا عمل. فالذي يستعيذ بالله من المرض يتداوى، والذي يستعيذ به من العدو يحتاط، والذي يستعيذ به من الحسد يكتم من أمره ما يحسن كتمانها، والذي يستعيذ به من شر نفسه يجاهدها ويحاسبها. لكن المؤمن لا يتخذ من السبب ربًّا آخر؛ يستعمله بيده، ولا يُسكنه قلبه. يسعى وكأن عليه واجب السعي كله، ويتوكل لأنه يعلم أن النتائج كلها بيد الله.

وهذا التوازن من أدق ما تبنيه السورة في النفس: أن تكون يقظًا من غير هلع، محتاطًا من غير وسواس، عارفًا بوجود الشر من غير افتتانٍ بتتبعه، مستعيذًا بالله من غير تعطيلٍ لمسؤوليتك.

ولأن السورة تتحدث عن الشرور الخفية، فقد يقع بعض الناس في خطئين متقابلين: فريقٌ ينكر كل ما لا تراه الحواس، فلا يصدق إلا

بما يقع تحت التجربة المادية؛ وفريقٌ يبالغ في تفسير الحوادث بالعين والسر والحسد، حتى تصبح حياته أسيرةً للريبة، ويرى وراء كل عثرةٍ حاسدًا، وخلف كل مرضٍ سحرًا، وفي كل وجهٍ عينًا تترصد به.

وسورة الفلق لا تقود إلى شيء من ذلك. إنها تثبت ما أثبتته الوحي من وجود السحر والحسد وأثرهما بإذن الله، لكنها لا تجعل القلب يدور حولهما؛ بل تنقله فورًا إلى رب الفلق. فالقرآن لا يفتح نافذة الغيب ليملأ الإنسان رعبًا، وإنما يفتح فوقها سماء الربوبية، حتى يرى العبد أن كل غيبٍ عن بصره حاضرٌ في علم الله.

ومن أعظم مقاصد السورة إذن تحرير القلب من عبودية الشر الخفي. فالخوف من الأشياء المرئية محدودٌ بحدودها، أما الخوف من الخفي فقد يتمدد بلا نهاية؛ لأن الخيال لا يعرف حدودًا. وربما عانى الإنسان من احتمال الأذى أكثر مما عانى من الأذى نفسه، وأمضى أيامه في حراسة أبواب لم يطرقها أحد، وخاض معارك كاملة مع خصومٍ صنعهم الظن.

هنا تأتي الاستعاذة رحمةً بالعقل كما هي حمايةً للروح. إنها تقول للإنسان: ليس عليك أن تعرف كل ما يُدبر، ولا أن تكشف كل ما استتر، ولا أن تُحصي كل من أحبك وكل من كرهك؛ عليك أن تعرف أن لك ربًّا لا يخفى عليه شيء، وأن تردَّ ما جهلته إلى علمه، وما عجزت عنه إلى قدرته.

إن من أثقل الأعباء أن يحاول الإنسان القيام بوظيفة الألوهية؛ أن يريد الإحاطة بكل شيء، والتحكم في كل نتيجة، وضمان المستقبل، وكشف النوايا، ومنع الأقدار قبل وقوعها. وما القلق في كثير من صوره إلا محاولة بشرية مستحيلة للإحاطة بما اختص الله بعلمه. لذلك تعيد سورة الفلق العبد إلى مقامه الجميل: أنت عبدٌ تستعيز، ولست ربًّا يحيط؛ أنت تأخذ بالأسباب، ولست خالق النتائج؛ أنت تحذر، ولكنك لا تعلم الغيب؛ أنت تطرق الباب، والله يتولى الحفظ.

وفي اختيار اسم ﴿رَبِّ الْفَلَقِ﴾ سرٌّ يناسب هذا البناء الشعوري كله. كان يمكن أن تأتي الاستعاذة باسم آخر من أسماء الله، لكن السورة جعلت الملجأ هو رب الفلق؛ رب الضوء وهو يشق الظلمة، ورب الحياة وهي تخرج من مكانها، ورب الانفراج حين يولد من داخل الانغلاق.

فالفلق ليس نورًا ساكنًا فحسب، بل نورٌ يشق. وفي الشق معنى القوة والمغالبة والانبعاث. إن الظلام يبدو متماسكًا حتى يطعنه أول خيط من الصبح، ثم لا يلبث أن يتهاوى ذلك السواد العظيم أمام شعاع رقيق. وكأن الله يعلمنا ألا نغتر بضخامة الظلمة؛ فقد يكون الذي يهزمها خيطًا صغيرًا يأذن الله له أن يظهر.

وكم في الحياة من ظلماتٍ توهم الإنسان أنها النهاية: مرضٌ يطول، وحزنٌ يستقر، وظلمٌ يستقوي، ووحدةٌ تضيق، وأبوابٌ تنغلق، ثم يفلق الله من داخلها مخرجًا لم يكن في الحسبان. لا يأتي الفرج

دائمًا من خارج المحنة؛ أحيانًا يشق الله المحنة نفسها، فيخرج من جوفها معرفةً، أو نضجًا، أو قربًا، أو قوةً لم تكن لتولد في الرخاء.

ومن هنا لا يكون الفلق مجرد ظاهرة كونية، بل يصبح وعدًا يتكرر أمام العين كل صباح: أن الظلمة ليست خالدة، وأن الله الذي لم يترك الليل بلا فجر لن يترك القلب المؤمن بلا لطف، وإن خفيت ساعة مجيئه.

وسنسير في هذا الكتيب مع كلمات السورة سيرَ المتأمل الذي يحفظ حدود النص، فلا يدّعي في القرآن معنى يخرج عن لسان العرب أو سياق الوحي، ولكنه لا يقف عند السطح الدلالي وحده. سننطلق من المعنى الصحيح الثابت، ثم نصغي إلى ما يفتح من هدايات نفسية وروحية وإنسانية؛ لأن القرآن لا يخاطب الذهن وحده، بل يعيد تشكيل الإنسان كله: نظرته إلى نفسه، وإلى العالم، وإلى الشر، وإلى الله.

وسنتوقف عند الأمر: ﴿قُلْ﴾، لنذكر لماذا يجب أن يتحول الإيمان إلى صوت، وعند: ﴿أَعُوذُ﴾، لنفهم سر الفرار الذي ليس هزيمة، بل هو غاية النجاة. وسنتأمل اسم ﴿رَبِّ الْفَلَقِ﴾، بما يحمله من رعاية وانبثاق وأمل، ثم ندخل دوائر الشر كما رتبها السورة: من العام إلى الخاص، ومن الظاهر إلى الخفي، ومن ظلمة الآفاق إلى ظلمة النفوس.

وسنرى كيف يتسلل الشر في صورة غاسقٍ يَقْب، أو نفثٍ ينعقد، أو حسدٍ يشتعل في قلب صاحبه. وسنرى في المقابل كيف تواجه السورة هذا كله بأقصر طريق وأقواه: أن تجعل القلب في جوار الله.

فالغاية من هذا التدبر ليست أن يخرج القارئ أكثر معرفةً بالشرور، بل أشد معرفةً بربه؛ وليست أن يزداد خوفاً من الحاسدين والسحرة وظلمات الحياة، بل أن يزداد يقيناً بأن فوق كل ذلك ربُّ الفلق.

هذه سورةٌ لا تعدك بأن الدنيا لن تُظلم، لكنها تعلّمك أن النور له رب.

ولا تعدك بالألا يُعقد في طريقك شيء، لكنها تدلك على مَنْ لا تعجزه العقد.

ولا تخبرك أن القلوب كلها ستصفو لك، لكنها تحمي قلبك من أن يفسده الخوف من قلوب الآخرين.

إنها سورة الأمان الذي لا ينشأ من غياب المخاطر، بل من حضور الله في القلب. وحين يمتلئ القلب بحضور ربه لا يعود محتاجاً إلى عالمٍ خالٍ من الشر حتى يطمئن؛ حسبه أن يعلم أن الشر كله لا يخرج عن سلطان الله.

ومن هذا اليقين تبدأ الرحلة:

ليلٌ يحيط بالإنسان، وخطرٌ لا يعرف موضعه، وقلبٌ صغير يحمل مخاوف كبيرة، ثم ينزل الأمر من السماء:

﴿قُلْ﴾

ومن هذه الكلمة يبدأ الفلق.

الفصل الأول

حِينَ يَتَكَلَّمُ الْخَائِفُ

تأملات في الأمر الإلهي: ﴿قُلْ﴾

تبدأ سورة الفلق بكلمة واحدة، لكنها تفتح الطريق كله:

﴿قُلْ﴾.

قبل أن تعلمك السورة ممّ تستعيز، تعلمك أن تتكلم. وقبل أن تسرد عليك وجوه الشر، تضع في فمك كلمة النجاة. فكأن أول ما يفعله الوحي بالخائف أن يحرره من صمته؛ لأن الخوف الذي لا يجد لغةً يتحول في الداخل إلى وحشة، والهم الذي لا يُرفع إلى الله يبني في الصدر بيتاً من الظنون.

﴿قُلْ﴾...

أي لا تترك خوفك مبهمًا يتكاثر في أقبية النفس، ولا تدعه يتخفى وراء التماسك المصطنع. سمّ ضعفك بين يدي الله، وأخرجه من عتمة الصدر إلى نور المناجاة. فليس الشجاع من لا تضطرب نفسه، وإنما من يعرف إلى أين يحمل اضطرابها.

إن في الصمت عن الألم قسوةً خفية على الروح. قد يبدو الإنسان أمام الناس ثابتاً، بينما تتحدر في داخله أسئلة لا يراها أحد: ماذا لو وقع ما أخشاه؟ ماذا لو لم أستطع الدفاع عن نفسي؟ ماذا لو كان في

الطريق شرٌّ لا أعرفه؟ ماذا لو خذلتني الأسباب في اللحظة التي أحتاجها؟

وحين تظل هذه الأسئلة بلا جواب، يعيدها الخيال مرةً بعد مرة حتى تبدو الاحتمالات كأنها وقائع، ويغدو الخوف من المستقبل ألمًا حاضرًا. عندئذ تأتي كلمة ﴿قُلْ﴾ لتقطع هذا الدوران المغلق؛ فهي ليست دعوةً إلى الكلام المجرد، بل أمرٌ بتحويل حديث النفس إلى حديثٍ مع الله.

وشتان بين من يحدث نفسه بمخاوفه، ومن يحدث ربّه بها.

حديث النفس قد يعيد الخوف إليك مضاعفًا، أما حديثك مع الله فيرُكّك إلى موضع العبودية. الأول يبدأ بالسؤال: ماذا سأفعل؟ والثاني يبدأ باليقين: مَنْ ربي؟ الأول ينظر إلى مقدار الخطر، والثاني ينظر إلى عظمة الملجأ. الأول يحصي الأبواب المغلقة، والثاني يتذكر أن مفاتيحها كلها بيد الله.

الإيمان الذي يصير صوتًا

كان يمكن أن تبدأ السورة مباشرةً بقول: «أعوذ برب الفلق»، ولكنها بدأت بالأمر: ﴿قُلْ﴾، ليبقى معلومًا أن هذه الكلمات ليست من إنشاء الإنسان، بل تلقينٌ من الله لعبده.

وهذه وحدها طمأنينة عميقة: فالله الذي علمك كيف تستعيز قد أراد أن يُعيزك، والذي وضع الدعاء على لسانك لم يفتح لك بابه ليصدك عنه. إن تعليم الله لكلمات الالتجاء نوعٌ من الإذن بالدخول عليه؛

فكأنه سبحانه يقول لعبده: إذا أحاط بك ما تخاف، فتعال إليّ بهذه الكلمات.

ليست السورة اكتشافاً بشرياً لطريقة الخلاص، بل هدية من السماء إلى الإنسان الضعيف. أنت لا تبحث في الظلام عن صيغة تصل بها إلى الله؛ لقد تولّى الله بنفسه تعليمك ما تقول. أعطاك مفتاح الباب، ثم أمرك أن تستعمله.

وفي الأمر ﴿قُلْ﴾ انتقالٌ بالإيمان من المعنى الكامن إلى الشهادة المنطوقة. فقد يعرف الإنسان في داخله أن الله يحفظه، لكن المعرفة قد تبقى باردة إذا لم تتحول إلى حضور في اللسان والقلب. وحين يقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، يسمع هو نفسه حقيقة التجائه، فتنقل العقيدة من زاوية الفكر إلى ساحة الشعور.

للكلمات التي ينطقها الإنسان أثرٌ في بناء عالمه الداخلي. فاللسان لا يكشف ما في القلب فحسب، بل قد يوقظه ويجمعه. وحين تتكرر في فم المرء كلمات الخوف والعجز وسوء التوقع، تنسج حول روحه مناحاً خانقاً. أما حين يردد أسماء الله، ويُعلن استعانته به، فإنه يفتح في ذلك المناخ نافذة.

وليس هذا لأن الأصوات تعمل مستقلةً عن الإيمان، بل لأن الذكر الصادق يُعيد القلب إلى الحقيقة التي غطّتها الغفلة. فالخوف لا يخلق ضعف الإنسان، وإنما يجعله ينسى قوة ربه؛ والاستعاذة لا تخلق ربوبية الله، وإنما توقظ في القلب شهودها.

ولهذا كان لا بد من القول.

من الشكوى إلى المناجاة

ليس كل كلامٍ عن الألم مناجاة. قد يتحدث الإنسان طويلاً عن خوفه، فلا يزداد إلا خوفاً؛ لأنه يصف الجرح ولا يرفعه إلى الشافي، ويكرر المشكلة ولا يصلها بمعنى الربوبية. وقد يشكو إلى الخلق حتى يصير أسيراً لتعاطفهم، فإذا تأخروا عنه شعر أنه بلا سند.

أما ﴿قُلْ﴾ في سورة الفلق فتوجّه الصوت من ازدحام الناس إلى الواحد الأحد. إنها لا تمنعك أن تستشير حكيمًا أو تستعين بصادق، لكنها تمنع قلبك من أن يتخذ من الخلق ملجأً أخيراً. فالناس قد يسمعون ولا يقدرّون، وقد يقدرّون ولا يريدون، وقد يريدون ثم تحول بينهم وبينك الحوائل. أما الله فيعلم قبل أن تتكلم، ويقدر قبل أن تطلب، وهو أقرب إليك من خوفك الذي يضيق به صدرك.

وللشكوى إلى الله معنى لا يشبه الشكوى من الله.

أن تشكو إلى الله ضعفك هو عبودية، وأن تشكو الله إلى خلقه اعتراضٌ وانكسار وجهة. الأول يفتح في الروح باب الرجاء، والثاني قد يجعل المصيبة حاجزاً بين العبد وربّه. ولقد قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾؛ فلم يكن صبره صمتاً قاسياً، وإنما كان كلاماً يتجه إلى الموضع الصحيح.

وسورة الفلق تعلمك هذا الاتجاه منذ حرفها الأول: قل لله، لا للخوف. اجعل حديثك صاعدًا، ولا تتركه يدور في الدائرة الضيقة نفسها. فما كل صمت صبرًا، وما كل حديث جزعًا؛ قد يكون الكلام مع الله من أكمل الصبر، وقد يكون الصمت عن مناجاته استسلامًا للألم.

فُلُّها ولو كان القلب مضطربًا

قد يظن الإنسان أنه لا يحق له أن يستعِذ حتى يصفو قلبه، أو أن الدعاء لا يليق إلا بمن بلغ مقامًا عاليًا من اليقين. لكن السورة لا تقول: اطمئن ثم قل؛ بل تقول: ﴿قُلْ﴾ لكي تطمئن.

ابدأ بالكلمة ولو كان قلبك يتعثر وراءها. ردها حتى تلحق الروح باللسان، وحتى تستقر المعاني التي تعرفها في أعماقك. فليس كل ذكرٍ يخرج من قلب حاضر منذ اللحظة الأولى، وإنما قد يكون الذكر نفسه هو الذي يستدعي القلب من شتاته.

إن الإنسان حين يخاف يتشظى انتباهه بين احتمالات كثيرة: يتخيل ما كان، وما يكون، وما قد لا يكون أبدًا. فتأتي كلمة الاستعاذة لتجمع هذا التبعثر حول حقيقة واحدة. وربما قالها العبد أول مرة ولسانه أسرع من قلبه، ثم قالها ثانيةً فبدأ قلبه يسمع، ثم قالها ثالثةً فشعر أنه لم يعد وحيدًا.

هذه هي التربية الرحيمة في القرآن؛ إنه لا ينتظر منك أن تكون مكتملاً حتى تأتي، بل يأمرك أن تأتي ليكتمل فيك ما نقص.

قلها وأنت خائف؛ لأنك خائف.

وقلها وأنت ضعيف؛ لأن الاستعاذة ليست مكافأة الأقوياء، بل ملجأ الضعفاء.

وقلها حين لا تعرف اسم الشر؛ لأن الله يعلمه.

وقلها حين تعجز عن شرح ما بك؛ لأن الذي علّمك الكلمات يعلم ما وراء الكلمات.

قلها بلسان العبودية لا بلسان التجربة

ثمة فرق بين من يقرأ سورة الفلق كأنه يختبر فاعليتها، ومن يقرأها لأنه عبدٌ يستجيب لأمر ربه. الأول يقف خارج المعنى مترقبًا: هل سيحدث ما أريد؟ أما الثاني فيدخل مقام العبودية: قال الله ﴿قُلْ﴾، فهذا أنا أقول.

وهذا الفارق دقيق وعظيم. فالقرآن ليس وصفة مادية منفصلة عن العلاقة بالله، بل كلام الله الذي يُتَعَبَّد بتلاوته، ويُستشفى به، ويُهتدى بنوره. والعبد لا يستخدم ربّه للوصول إلى الطمأنينة؛ بل يعبد ربّه، فتأتيه الطمأنينة أثرًا من آثار العبودية.

من هنا يكون قول السورة طاعةً قبل أن يكون طلبًا، وقربًا قبل أن يكون حماية. فأنت حين تنطق بها لا تطلب فقط أن يدفع الله عنك الشر، بل تقف في مقام العبد الذي عرف ربّه وعرف فقره إليه. وقد يكون أعظم ما تمنحك إياه السورة ليس أن يتغير ما حولك فورًا، بل

أن يتغير موضعك أنت مما حولك: أن تنتقل من الرعب إلى الالتجاء، ومن التشتت إلى التوحيد، ومن مراقبة الشر إلى مراقبة الله. وربما بقي الخطر كما هو، لكن القلب لم يبق كما كان. وهذا أول الفلق.

الكلمة في مواجهة الصمت المظلم

للشر صوتٌ في داخل الإنسان؛ يهمس له بأن لا ملجأ، وأن الأسباب قد انقطعت، وأن الظلام محكم الإغلاق. وكل خوف يحمل في باطنه روايةً يحاول أن يقنعك بها: أنك وحدك، وأن ما يؤذيكَ أكبر منك، وأن الغد نسخة أشد قسوةً من اليوم.

ولذلك لا بد أن تواجه الرواية الكاذبة بكلمة الحق:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

إنها ليست صرخةً في فراغ، بل خطابٌ يتصل برب العالمين. وأنت لا تقولها لتُسمع الليل، بل لتعلن أنك لست ملكاً له. ولا تقولها ليعلم الحاسد أنك محمي، بل ليعلم قلبك أنك عبدُ الله. ولا تقولها لأنك أحطت بمصادر الشر، بل لأنك آمنت بمن أحاط بها.

وكان السورة تعلمنا أن الإنسان قد لا يستطيع إيقاف كل صوتٍ يأتيه من الخارج، لكنه يستطيع أن يختار الصوت الذي يقوده من الداخل. فإما أن يقوده صوت الخوف، وإما أن تقوده كلمة الله.

وحين تستقر كلمة الله في النفس، لا تختفي جميع المشاعر البشرية، لكنها تنتظم. يظل الحذر حذرًا، ولا يتحول إلى هلع. ويظل الضعف افتقارًا، ولا يصير يأسًا. ويظل المجهول مجهولًا، لكنه لا يعود أرضًا بلا رب.

فُلْها عن وعي

ليست العبرة بكثرة التردد مع غياب القلب، وإن كان في التلاوة أجراها وبركتها، لكن تمام أثرها أن يقولها الإنسان وهو يستحضر معانيها.

عندما تقول: ﴿قُلْ﴾، استشعر أنك تستجيب لأمر الله.

وعندما تقول: ﴿أَعُوذُ﴾، استشعر أنك تدخل في جواره.

وعندما تقول: ﴿بِرَبِّ﴾، استشعر أنك تلجأ إلى مَنْ يتولاك ويربيك ويدبر أمرك.

وعندما تقول: ﴿الْفَلَقُ﴾، استحضر صبحًا يشق الليل، وفرجًا يشق الكرب، ونورًا لا يملك الظلام أن يمنعه من الظهور.

إن اللسان قد يقطع السورة في ثوانٍ، أما القلب فقد يحتاج إلى أن يمكث عند كلمة واحدة حتى تُعيد تشكيله. وما التدبر إلا أن تمنح الكلمة من سكونك ما يسمح لها بأن تكشف لك بعض نورها.

حين يصبح الخائف داعياً

الأمر **(قُلْ)** وَجَّهْ أولاً إلى النبي ﷺ، ثم صارت السورة على لسان كل مؤمن. وفي هذا التحول معنى جميل: أن ما نزل تسليّةً وحفظاً وتعليماً للنبي الخاتم صار ميراثاً تتناقله الأمة إلى قيام الساعة.

يقولها الأب وهو يحصّن أبناءه، وتقولها الأم وقلبها مشغول على أولادها، ويقولها المسافر في وحشة الطريق، والمريض في ظلمة الألم، والمظلوم حين تخفى عنه وجوه الكيد، والوحيد حين يسكن الليل وتعلو أصوات نفسه.

وفي كل مرة تُقال بصدق، يتجدد المشهد الأول: عبدٌ ضعيف، وشُرور كثيرة، وربٌّ واحد يملك الصبح والليل وما ظهر وما خفي.

ثم إن الذي يتعلم أن يقولها لنفسه يصبح قادراً على أن يدل غيره عليها. فالمؤمن لا يكتفي بأن يجد الملجأ؛ إنه يمسك بأيدي الخائفين ويقول لهم: هنا الباب. لا يُنكر الآمهم، ولا يلومهم على هشاشتهم، بل يعلمهم أن يحولوا الهشاشة إلى استعانة.

وما أجمل أن يكون الإنسان فلحاً صغيراً في ليل الآخرين؛ لا يملك أن يزيل عنهم كل شر، لكنه يذكرهم برب الفلق.

أول الطريق كلمة

ربما لا يستطيع الإنسان أن يغير واقعه في اللحظة التي يهجم عليه فيها الخوف. قد لا يستطيع أن يوقف ليلاً، أو يكشف كيداً، أو يرد حاسداً، أو يحل عقدة خفية. لكنه يستطيع أن يقول.

وهذا القول ليس أقل من الفعل؛ لأنه الفعل الأول الذي يضع سائر الأفعال في موضعها. فقبل التخطيط استعانة، وقبل المواجهة افتقار، وقبل البحث عن المخرج معرفةً برب الفلق. وما ضل الإنسان في أزماته إلا حين بدأ بنفسه وانتهى إليها، فدارت به قوته المحدودة داخل دائرةٍ مغلقة.

أما القرآن فيفتح الدائرة بكلمة:

﴿قُلْ﴾

قلها ليخرج الخوف من كونه سجنًا إلى كونه طريقًا إلى الله.
قلها لنلا يظل الألم مادةً للوسواس، بل يصير وقودًا للمناجاة.
قلها لأن الشر يحب الصمت الذي يتركه يكبر في الخيال، أما ذكر الله فيضعه تحت نور الحقيقة.

قلها، لا لأنك لا تخاف، بل لأنك عرفت من إليه يفر الخائفون.
وحين تنطق بها من أعماقك، تكون قد خطوت أول خطوة خارج الليل؛ فالشفاه لا تزال في العتمة، لكن القلب بدأ يرى الفلق.

الفصل الثاني

فَنُ الْفِرَارِ إِلَى اللَّهِ

تأملات في مقام الاستعاذة: ﴿أَعُوذُ﴾

ليست كلُّ حركةٍ إلى الوراء هزيمة، ولا كلُّ فرارٍ جبناً. ثمة فرارٌ يضيّع الإنسان، وفرارٌ يعيده إلى موطن أمنه؛ فرارٌ من الواجب، وفرارٌ إلى القادر على الإعانة عليه؛ فرارٌ يُمليه اليأس، وفرارٌ يولده اليقين.

وسورة الفلق تعلّم الإنسان أرفع أنواع الفرار:

﴿أَعُوذُ﴾.

إنها كلمة قصيرة، غير أنها تحمل حركة الروح كلها؛ خوفها، وضعفها، ورجاءها، ومعرفتها بربها. فالاستعاذة ليست أن تقول: أخاف، ثم تقف؛ بل أن تقول بخفق القلب كله: أخاف، ولذلك ألوذ بالله.

الخوف وحده قد يشلّ الإنسان، أما الخوف الذي يعقبه التجاء فيتحول إلى عبادة. والضعف وحده قد يصنع الهزيمة، أما الضعف الذي يعرف باب القوة فيصير افتقاراً، والافتقار إلى الله من أشرف مقامات العبودية.

حقيقة الاستعاذة

في قولك: ﴿أَعُوذُ﴾ معانٍ تجتمع في لحظة واحدة: أعتترف أنني ضعيف، وأوقن أنك قوي، وأهرب مما يؤذيني، وألجأ إليك، وأرضى أن يكون حظي بيدك.

فالاستعاذة لا تكتمل بمجرد إدراك الخطر؛ إذ قد يعرف الإنسان مصدر الأذى ولا يعرف طريق النجاة. ولا تكتمل بمجرد الإيمان بقدرة الله؛ فقد يؤمن المرء بها معرفةً، ثم لا يتحرك قلبه إلى بابه. إنما تتم الاستعاذة حين تتحول المعرفة بالله إلى لجوء، ويتحول الشعور بالعجز إلى تعلق.

وكان العبد يقول: يا رب، ليس لي في مواجهة ما أخافه استقلال، ولا أزعم أنني أحيط بمداخله، ولا أثق بقوتي ثقةً تغنيني عنك؛ أنا أدخل في جوارك، وأستتر بحفظك، وأرُدُّ إليك ما عجزت عن دفعه.

وهذا الاعتراف ليس إهانةً للإنسان، بل تحريراً له من ادعاءٍ يفوق طاقته. أشد الناس تعباً من يظن أنه مسؤول عن ضمان كل شيء: عليه أن يمنع المرض، ويكشف الخديعة، ويتوقع الكارثة، ويحرس القلوب، ويضبط المستقبل. يحمل العالم فوق صدره، ثم يتساءل لماذا لا يستطيع النوم.

تأتي كلمة ﴿أَعُوذُ﴾ فتتنزل عن كاهله هذا العبء المستحيل. أنت مسؤول عن السعي، لا عن إحكام الكون؛ عن الحذر، لا عن امتلاك الغيب؛ عن الدعاء، لا عن صناعة القدر. افعل ما تستطيع، ثم ضع ما لا تستطيع عند مَنْ لا يعجزه شيء.

من نفسك إلى ربك

قد يهرب الإنسان من الخوف إلى أشياء تزيد خوفه: يهرب إلى العزلة حتى تستحكم وحشته، أو إلى كثرة التفكير حتى تنتשב احتمالاته، أو إلى مراقبة الناس حتى يمتلئ قلبه بالريبة، أو إلى قوة بشرية يتوهم أنها لن تخذله، فإذا خذلته انهار أمانه كله.

وسورة الفلق لا تقول فقط: اهرب، بل تحدد جهة الفرار:

﴿يَرْبِّ الْفَلَقِ﴾.

فالنجاة لا تتحقق بمجرد مغادرة الشيء المخيف، وإنما ببلوغ الحمى الأمن. وقد يخرج الإنسان من خوفٍ ليدخل في خوفٍ أشد، ومن عبودية شخص إلى عبودية سبب، ومن قلقٍ ظاهر إلى تعلقٍ خفي. أما الفرار إلى الله فهو انتقالٌ من كل ضيق إلى السعة التي لا حد لها.

إن كل ملجأ في الدنيا محدود بما يملكه. المال يحميك من بعض الحاجة، لكنه لا يحميك من المرض ولا الموت. والسلطان قد يرد عنك يدًا، لكنه لا يرد عنك قدرًا. والصديق يواسي قلبك، لكنه قد

يعجز عن فهم بعض أوجاعك. والعقل يهديك إلى أسباب، لكنه يقف أمام غيب الغد عاجزاً.

أما الله فهو الملجأ الذي لا تحيط به الحدود التي تحيط بسائر الملاجئ. لا يحفظك من جهة ويتركك لجهة، ولا يغيب عنه ما خفي، ولا يعجزه ما عظم، ولا يحتاج في حمايتك إلى مَنْ يعينه.

ولهذا لا يقول المؤمن في استعاذته: أعوذ بقوتي، ولا بحذري، ولا بمن يحبني، مع أنه ينتفع بكل ذلك. إنه يستعمل النعم، لكنه يستعيز بالمنعم؛ لأن الوسائل قد تتبدل، أما الرب فلا يتبدل، والأسباب قد تنقطع، أما عنايته فلا تنقطع.

الاستعاذة وصدق العبودية

من أشق الأمور على النفس أن تعترف بحاجتها؛ فهي تحب أن تظهر مكتفية، قادرة، ثابتة لا يهزها شيء. وقد يختبئ خلف هذا التماسك خوف من انكشاف الضعف أمام الناس. لكن الوقوف بين يدي الله ليس موضعاً للتجمل، بل موضعٌ للصدق.

الله لا يريد منك أن تدخل عليه بقوة مصطنعة؛ بل أن تأتية بحقيقتك. أن تقول له، بلسان الحال والمقال: أنا عبدك، تؤذيني أشياء لا أقدر عليها، وتقلقني أمور لا أعلمها، وقد يضل عقلي في الاحتمالات، فلا تكلني إلى نفسي.

وهذا الاعتراف هو عين القوة؛ لأن الذي يعرف موضع ضعفه لا يعود مضطراً إلى الدفاع عن وهم كماله. وفي الافتقار إلى الله غنى

لا يعرفه المستغني بنفسه؛ فَمَنْ استند إلى نفسه استند إلى شيءٍ يتغير ويضعف وينام وينسى، ومن استند إلى ربه استند إلى الحي القيوم.

فالعبد لا يصبح قويًّا بأن ينكر حاجته، بل بأن يُحسن وضعها. وكل حاجةٍ وضعتها عند الخلق وحدهم أذلّتك بقدر تعلّقك بهم، وكل حاجةٍ وضعتها بين يدي الله أعادت إليك كرامة العبودية.

الاستعاذة ليست استقالةً من الحياة

قد يفهم بعضهم التوكل والاستعاذة على أنهما تخلٍّ عن العمل، كأن المستعِذ يكتفي بالكلمات ثم ينتظر أن تتبدل الأشياء من غير سعي. لكن القرآن الذي علّمنا الاستعاذة هو نفسه الذي أمرنا بالأخذ بالأسباب، والاستعداد، والحذر، والصبر، والدفع بالتي هي أحسن.

فالاستعاذة لا تلغي الفعل؛ إنها تطهّره من الغرور.

تذهب إلى الطبيب وأنت تستعِذ بالله من المرض، فلا ترى الطبيب خالقًا للشفاء. وتغلق بابك وأنت تستعِذ بالله من الشر، فلا ترى القفل مصدرًا مستقلًّا للأمن. وتحذر من ظهرت لك عداوته، لكنك لا تظن أن ذكاءك أحاط بكل مكر. وتبتعد عن أسباب الفتنة، وأنت تعلم أن ثبات قلبك هبة من الله.

إن الأسباب في يد المؤمن، لا في قلبه. يحملها ويتقنها، لكنه لا يسجد لها في باطنه. فإذا نجحت لم يتكبر، وإذا تعطلت لم ينهدم؛ لأن اعتماده لم يكن عليها ابتداءً.

أما مَنْ تعلق بالسبب وحده، فإنه يعيش في قلق دائم؛ لأن أمانه صار معلقًا بأشياء قابلة للكسر. كلما اهتز السبب اهتز قلبه، وكلما غاب عنه شعر بالضيق. والاستعاذة تعيد الأمان إلى أصله: الله يحفظ بالأسباب، ويحفظ بغيرها، وقد يصرف الضرر قبل أن تعلم أنه كان متجهًا إليك.

وكم من شرٍّ لم نره لأن الله صرفه! نحن لا نعرف إلا النعم التي حضرت، أما النعم التي تمثلت في أخطارٍ لم تقع، ونياتٍ سيئة لم تنفذ، وطرقٍ أغلقت رحمةً بنا، فأكثر من أن تُحصى. إننا ننام كل ليلة ولا نعلم كم من الأذى وقف عند حدود الحفظ الإلهي ثم عاد.

الاستعاذة من الشر الخارجي والشر الداخلي

حين يقرأ الإنسان سورة الفلق قد يتجه ذهنه إلى الشرور القادمة من الخارج: عدو، أو حاسد، أو سحر، أو خطرٍ مستتر. لكن أخطر ما يحتاج العبد إلى أن يُعاذ منه قد يكون ساكنًا في داخله.

ففي النفس أبوابٌ إذا فُتحت دخل منها الشر: كِبَرُ يعميها عن الحق، وحسدٌ يجعلها تتألم لفضل الله على غيرها، وشهوةٌ تزين لها القيد في صورة حرية، وغضبٌ يقنعها أن الظلم انتصار، وسوء ظن يفسد عليها أنقى العلاقات.

وربما كان الإنسان شديد الانشغال بمن يحسده، غافلاً عن حسدٍ يتكوّن في قلبه؛ أو خائفًا من نفث الآخرين في عُقد حياته، وهو ينفث

بكلماته القاسية في روابط مَن حوله؛ أو مستعيذًا من ظلمة الليل، وقد ترك في قلبه ظلمة الضغينة.

الاستعاذة الصادقة لا تجعل المرء متهمًا للعالم، بل أكثر تفتيشًا عن نصيبه من الشر. إنه لا يقول: يا رب، احفظني من الناس فحسب؛ بل يقول في العمق: احفظني من أن أكون شرًّا على أحد، ومن أن أتحول إلى ما أستعيز بك منه.

فما أجمل أن تطلب من الله ألا يجعلك حاسدًا كما تطلب منه أن يحميك من الحسد، وألا يجعلك نافثًا في عقد المودة كما تطلب منه حمايتك من النافثين، وألا يجعل ظلمة قلبك تغشى الآخرين كما تستعيز من الغاسق إذا وقب.

وهنا ترتقي الاستعاذة من طلب السلامة الشخصية إلى تطهير الوجود الأخلاقي كله.

الخوف الذي يعرف حدّه

ليس كل خوفٍ مذمومًا؛ ففي الخوف الطبيعي حفظٌ للحياة، ودعوةٌ إلى الاحتياط، وتنبيهٌ إلى مواطن الخطر. لكن المشكلة تبدأ حين يتجاوز الخوف وظيفته، فيصبح هو الحاكم على التصور والقرار والعلاقة بالمستقبل.

الخوف النافع يقول لك: انتبه. أما الخوف المَرَضِي فيقول: لن تنجو.

الخوف النافع يدفعك إلى سبب مشروع، أما المفرط فيدفعك إلى مراقبة كل شيء.

الخوف النافع يوقظك، أما المفرط فيستنزفك.

وحيث تقول: ﴿أَعُوذُ﴾، فأنت لا تطلب فقط دفع الشيء الذي تخافه؛ بل تطلب ضمناً أن يحميك الله من استبداد خوف نفسه. فربما لم يقع الشر، لكن الخوف منه سرق أعواماً من عمرك، وأفسد عليك حاضراً آمناً بسبب مستقبلٍ متخيّل.

إن من مكر الخوف أنه يطالب الإنسان بالألم مقدماً. يقول له: تعذّب الآن، لأنك قد تتعذب غداً. فتأتي الاستعادة لتعيد الغد إلى ماله. أنت ابن اللحظة التي أقامك الله فيها؛ قم بما يجب عليك الآن، ولا تستدع مصيبةً لم يأذن الله لها أن تقع.

ليس معنى هذا أن تلغي التخطيط، بل أن تمنع التخطيط من التحول إلى عبادةٍ للسيطرة. رتّب ما تستطيع، ثم اعلم أن الله يدبر ما لا تستطيع.

حين تصبح الاستعاذة سَكِينَةً

في بداية الأمر قد يقول العبد: ﴿أَعُوذُ﴾ لأن خطرًا أفزعته، ثم مع كثرة القرب من الله يكتشف أن الاستعاذة ليست فقط مأوىً طارئاً، بل مقام إقامة. فلا يعود إلى الله عند الشدة وحدها، وإنما يعيش في جواره في الرخاء والشدة.

وهذا هو التحول العميق: أن تنتقل من الاستعاذة الموسمية إلى الافتقار الدائم. فلا تنتظر أن يشتد الليل حتى تعرف رب الفلق، بل تعرفه في وضوح النهار؛ لكي يكون حاضراً في قلبك إذا أظلمت الطرق.

إن الذي لا يعرف الله إلا عند الخوف قد يجد لسانه سريعاً إلى الدعاء، لكن قلبه يحتاج وقتاً ليستعيد ما نسيه. أما مَنْ عمر أوقات العافية بالذكر، فإنه إذا نزل البلاء وجد الطريق إلى الله مأهولاً، والباب مألوفاً، والاسم الذي يدعوه به ساكناً في قلبه.

ولذلك كانت قراءة المعوذات في الصباح والمساء تربيةً على الإقامة في الحفظ، لا مجرد استجابةٍ لخطرٍ طارئ. كأن المؤمن يضع يومه وليلته في جوار الله قبل أن يعرف ما سيأتي فيهما.

هو لا ينتظر الشر كي يستعيز، بل يسبق المجهول بالاعتصام.

لا تسأل الخوف عن حجم ربك

حين يشتد الخوف يضيق الوعي، فلا يرى الإنسان إلا موضع الألم. وقد يبدو الشر في لحظته أكبر من كل شيء؛ لا لأنه كذلك في الحقيقة، بل لأنه اقترب من العين حتى حجب الأفق.

كالقطعة الصغيرة إذا وضعتها أمام بصرك حجبت عنك الجبل، لا لأنها أعظم منه، بل لأنها أقرب إلى نظرك. وكذلك الخوف؛ يقترب من النفس حتى يحجب عنها شهود عظمة الله.

والاستعاذة تعيد ترتيب المسافات. لا تنكر القطعة الصغيرة، لكنها تبعدنا قليلاً لترى الجبل وراءها. لا تقول لك إن الخطر غير موجود، بل تذكر بأنه ليس الموجود الوحيد؛ فوَقْه قدرة، وحوله علم، وقبله تقدير، وبعده حكمة.

فلا تسأل خوفك عن حجم ربك؛ فالخوف لا يعرف إلا نفسه. اسأل الوحي، وسيقول لك إن الذي خلق الفلق قادرٌ على أن يشق أغلظ الظلمات، وإن الذي يعلم ما خفي لا تفاجئه مؤامرة، وإن الذي بيده قلوب الخلق لا يعجزه حاسد ولا ساحر ولا عدو.

من كل شيء إليه

الناس يفرون عادةً من موضع الخطر، أما المؤمن فيفر قبل ذلك إلى الله. قد يبتعد بجسده عن الأذى، لكنه يعرف أن النجاة الحقيقية حركة قلب.

فكم من إنسان خرج من مكان الخطر، لكن الخطر بقي مقيمًا في داخله! نجا جسده، وظل قلبه يعيد الواقعة كل ليلة. ابتعد عنه المؤذي، وبقيت صورته تتحكم في وجدانه. انقضت المحنة، لكن الخوف من تكرارها لم ينقض.

هنا تظهر حاجة الإنسان إلى استعادة أعماق: أن يعيده الله من الأثر بعد زوال المؤثر، ومن الذكرى حين تتحول إلى سجن، ومن الحذر حين يصير عجزًا عن الحياة.

الله لا يحفظ الأجساد وحدها، بل يجبر القلوب التي مر عليها الشر. وربما كانت تمام النجاة ألا يخرج الإنسان سالمًا فحسب، بل أن يخرج أكثر معرفةً بربه، وأقلَ تعلقًا بغيره، وأشدَّ رحمةً بالضعفاء.

فلا تجعل الشر الذي أصابك يُعيد تشكيكك على صورته. إذا ظلمك أحد، فلا تسمح للظلم أن يجعلك ظالمًا. وإذا خانك إنسان، فلا تجعل الخيانة تسلبك القدرة على الوفاء. وإذا حسدك حاسد، فلا تجعل أذاه يملأ قلبك بحسدٍ مقابل. استعذ بالله من الشر ومن آثاره، ومن أن يسكن فيك شيءٌ مما تكرهه في الآخرين.

الفرار الذي يعيدك إلى نفسك

حين تفر إلى الله لا تفقد نفسك، بل تستردها. فالخوف يبعثرها، والقلق يقسمها بين أزمنة لم تأتِ، والناس يجذبونها إلى توقعاتهم وأحكامهم، فإذا لجأت إلى الله عادت روحك من منافذ التشتت كلها.

هناك، في مقام ﴿أَعُوذُ﴾، لا تحتاج إلى أن تبدو قويًا ولا إلى أن تشرح كل ما بك. يكفي أن تكون عبدًا. وهذه البساطة هي الراحة التي يبحث عنها المرهقون: أن تسقط عنك اللحظة كل الأدوار، وتقف أمام ربك بحقيقتك الأولى؛ مخلوقًا ضعيفًا بين يدي خالقه القوي.

وتكتشف عندئذ أن الأمن ليس أن تمتلك ضمانًا بالأب لا يصيبك مكروه، فالدنيا دار ابتلاء، وإنما الأمن أن تعلم أن شيئًا لن يقع خارج علم الله ورحمته وحكمته، وأنت لن تواجه قدرًا لا يكون الله معك فيه. فقد يحفظك الله من البلاء، وقد يحفظك فيه. قد يمنع الألم عنك، وقد يمنحك قلبًا يمر عبره ولا ينكسر. وقد يكون الحفظ في تغيير الطريق، أو في تأخير ما تريد، أو في نزع شيءٍ تعلقت به، ثم لا تعرف وجه الرحمة إلا بعد زمن.

الاستعاذة ليست اشتراطًا على الله أن تأتي النجاة في الصورة التي اخترتها، بل ثقة بأن ما يختاره لك رب الفلق أرحم من اختيارك، وإن مرَّ بك عبر شيءٍ من الليل.

﴿أَعُوذُ﴾: كلمة الحرية

في ظاهرها تبدو الاستعاذة إعلان حاجة، لكنها في حقيقتها إعلان تحرر. حين تقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فأنت تتحرر من الاعتقاد بأن مصيرك بيد الحاسد، أو أن حياتك محكومة بكيد إنسان، أو أن الظلام يملك الكلمة الأخيرة.

أنت ترد السيادة كلها إلى الله.

وبذلك تسقط عن الأشياء تلك الهيبة الزائدة التي منحها لها خوفك. يظل الحاسد حاسدًا، لكنه عبدٌ مخلوق. ويظل السحر شرًّا، لكنه لا يعمل خارج القدر. ويظل الليل مظلمًا، لكنه مسوقٌ بأمر الله نحو الفلق. وتظل أنت ضعيفًا، لكنك لست متروكًا.

وأي قوةٍ أعظم من ضعفٍ عرف طريقه إلى الله؟

إن الضعف الذي يقطعك عن الله هوان، أما الضعف الذي يلقبك على بابه فعبودية. والخوف الذي يجعلك تسجد للشر سجن، أما الخوف الذي يجعلك تفر إلى رب الفلق فباب حرية.

ولهذا لا تنتهي كلمة ﴿أَعُوذُ﴾ عند الحماية من الخطر، بل تبدأ منها حياة جديدة: حياة إنسان لم يعد يطالب نفسه بأن تكون إلهاً صغيراً يسيطر على كل شيء؛ بل رضي أن يكون عبدًا يسعى، ويستعين، ويطمئن إلى أن له ربًّا.

فافرر إليه حين تخاف، وحين تأمن أيضًا.

افرر إليه من أعدائك، ومن نفسك إذا صارت عدوًّا لك.

افرر إليه من ظلمات الخارج، ومن ظلمات الداخل.

افرر إليه من الشر إذا وقع، ومن الوهم إذا بالغ في تصويره.

افرر إليه لا لتغادر الحياة، بل لتعود إليها بقلبٍ حر.

فليس كل فرارٍ هزيمة؛ إن أعظم الانتصارات يبدأ من قول العبد:

﴿أَعُوذُ﴾.

الفصل الثالث

رَبُّ الْفَلَقِ

النور الذي يشقُّ الظلمة، والفرج الذي يولد في قلب الشدة

ليست الأسماء التي يدعو بها الإنسان ربّه ألفاظاً محايدة؛ فكل اسم إلهي يفتح في القلب نافذةً من المعرفة، ويعيد تشكيل اللحظة بما يلائمها من معاني الربوبية. والمستعيز في سورة الفلق لا يقول: أعوذ بالله فحسب، مع جلال هذا الاسم الجامع، بل يتلقى من الوحي اسمًا وصفيًا يناسب مخاوفه ويضيء الطريق من داخلها:

﴿بِإِثْنِ الْفَلَقِ﴾.

وكان السورة تريد أن تُخرج القلب من الخوف قبل أن تذكر له تفصيل ما يخاف. تضع أمامه صورة الصبح وهو يشق الليل، ثم تمضي به إلى الغاسق والنفاثات والحاسد. فالترتيب نفسه علاج: قبل أن تنتظر في الظلمات، تذكر مَنْ يفلقها؛ وقبل أن تتأمل العُقد، اعرف مَنْ لا تستعصي عليه عقدة؛ وقبل أن تخاف من تدبير الخلق، استحضر تدبير الرب.

إن أخطر ما يفعله الخوف بالإنسان أنه يريه الظلمة، ويُنسيه ربَّ الظلمة والنور. تأتي سورة الفلق فتردُّ البصر إلى الأعلى، وتقول له: لا تنتظر إلى الليل منفصلاً عن مالكه، ولا إلى الشر مجرداً من سلطان الله عليه.

لماذا ربُّ الفلق؟

الفلق في أصل دلالاته يحمل معنى الشق والانفراج والظهور بعد استتار. ومن أظهر معانيه فلق الصبح للظلام؛ إذ يبدو الليل كتلة سوداء محكمة، ثم يخرج من جوفه خيط نور لا يكاد يُرى، لكنه يحمل في رفته نهاية ذلك السواد كله.

وما أعجب الصبح! لا يأتي غالبًا في هيئة صاعقة تمزق الليل دفعة واحدة، بل يبدأ هادئًا، رقيقًا، يكاد الناظر الغافل لا يشعر به. ثم يمتد قليلًا قليلًا حتى يسترد الأفق ألوانه، وتظهر الأشياء التي أخفاها الظلام، ويكتشف الإنسان أن العالم لم يكن قد اختفى؛ إنما غاب عن بصره حينًا.

وكذلك كثير من الفرج في حياة الإنسان. لا يأتي دائمًا في مشهدٍ صახب، بل يبدأ بفكرة تهديه، أو كلمة تسنده، أو دعاء يلين به قلبه، أو باب صغير يُفتح في جدار ظنه مصمتًا. وربما كان الفلق قد بدأ وهو لا يزال يشتكي من الليل؛ لأن بدايات الرحمة أدق من أن تراها العين المستعجلة.

إن الذي لا يؤمن إلا بالتحويلات الضخمة قد لا يرى ألطف الله الصغيرة، مع أن النجاة كثيرًا ما تبدأ بها. قد يكون أول الفلق أن تستطيع البكاء بعد جمود، أو أن تعود إلى الصلاة بعد فتور، أو أن ترى معنى في محنة حسبتها عبثًا، أو أن تستيقظ وفي قلبك قدرة قليلة على الاحتمال لم تكن فيه بالأمس.

لا تحتقر خيط الضوء؛ ففيه هزيمة الليل كله.

الربوبية التي ترعى خروج النور

قال الله: ﴿بَرَبِ الْفَلَقِ﴾، ولم يقل: «بخالق الفلق» فقط. والخلق داخل في الربوبية، لكن لفظ ﴿رَبِّ﴾ يضيف إلى معنى الإيجاد معاني الرعاية والتدبير والتربية والتدرج.

فالله لا يخلق الصبح ثم يتركه يبحث عن طريقه، بل يدبر حركته، ويحدد لحظته، ويقوده في الأفق بقدر. وكل فلق في حياتك له عند الله توقيته وحكمته ومساره. قد تستبطئ الفرج لأنك تنتظر من داخل الألم، أما الرب فيعلم متى يفتح الباب، وكيف يهينك للدخول، وما الذي ينبغي أن ينضج فيك قبل أن تتغير الأشياء من حولك.

وربما كان التأخير نفسه تربيةً من رب الفلق. فأنت تريد خروجًا سريعًا من الشدة، والله يريد أن يخرج منك بالشدة إنسانًا جديدًا. تريد أن يزيل الجدار، وهو سبحانه يعلمك كيف ترى الباب. تريد أن تستعيد ما فقدت، وربك يريد أن يحرر قلبك من عبوديته لما فقد.

ليس كل تأخير حرمانًا، كما أن الفجر لا يكون متأخرًا لأنه لم يأت في منتصف الليل. لكل شيء ميقات، ورب الفلق يعلم اللحظة التي يبلغ فيها الليل غايته ويبدأ الانشقاق.

قد لا يكون السؤال الأعمق: لماذا لم يأت الفرج بعد؟ بل: ماذا يصنع الله في قلبي قبل مجيئه؟ أيُّ تعلقٍ ينزعه؟ وأيُّ يقينٍ بينيه؟ وأيُّ معنىٍ لم أكن لأراه في وضوح الرخاء؟

فربوبية الله لا تظهر فقط في النتيجة التي نح بها، بل في الطريق الذي يربينا إليها.

الفلق يخرج من داخل الظلمة

من ألطف معاني الصورة أن الفجر لا يأتي إلى الليل من عالم غريب، بل ينشق عنه في إدراك الناظر؛ كأن الظلمة نفسها تحمل الموضع الذي سيخرج منه النور. وهذا يفتح للروح بابًا عظيمًا في فهم البلاء: قد يُخفي الله الفرج داخل الشيء الذي تظنه مصدر هلاكك.

كم من محنةٍ ردت قلبًا شاردًا إلى الله، فكانت في ظاهرها ألمًا وفي باطنها إنقاذًا! وكم من بابٍ أُغلق، فدفع صاحبه إلى طريقٍ لم يكن لينظر إليه، ثم وجد فيه قدره الجميل! وكم من خذلانٍ كشف للإنسان حقيقة اعتماد قلبه، فانتقل من التعلق بالخلق إلى السكون للحق!

نحن عادةً نبحث عن النجاة خارج الشيء المؤلم: نتمنى أن تزول الظروف، وأن يتغير الناس، وأن تعود الأيام إلى صورتها القديمة. لكن رب الفلق قد يشقُّ من صميم المحنة معنىً ينفذك، وإن بقيت صورتها مدةً من الزمن.

ليس معنى ذلك أن الألم يصبح محبوبًا لذاته، ولا أن الشر يفقد وصفه، بل معناه أن قدرة الله لا تترك الألم عقيمًا. يستطيع سبحانه

أن يخرج من الجرح معرفةً، ومن الفقد زهدًا، ومن الوحدة انسًا به،
ومن الانكسار تواضعًا، ومن الظلم قوةً أخلاقية لا تشبه قسوة الظالم.
الإنسان يرى الظلام، والله يرى الفلق المستتر فيه.

ما وراء الأفق

الفلق مشهّد كوني، لكنه أيضًا درسٌ في حدود الإدراك. حين يكون
الإنسان في قلب الليل لا يرى الشمس، غير أن عدم رؤيتها لا يعني
عدم وجودها. إنها هناك، وراء حدود بصره، ويكفي أن ينتظر حركة
القدر حتى تعود إلى أفقه.

وهكذا أشياء كثيرة في علاقتنا بالله: قد لا نرى الحكمة، لكنها
ليست غائبة؛ ولا نرى الحفظ، لكنه يعمل؛ ولا ندرك جواب الدعاء،
لكنه قد يكون في طريقه إلينا بصورة لا نعرفها. نحن نخط أحيانًا
بين «لا أرى» و«لا يوجد»، فنتحول محدودية أبصارنا إلى حكم
على تدبير الله.

سورة الفلق تربيك على ألا تجعل رؤيتك القصيرة مقياسًا للحقيقة
كلها. في أشد ساعات الليل ظلمة تكون حركة الكون نفسها ماضيةً
نحو الصباح، وإن لم ترَ أنت منها شيئًا. وكذلك القدر: قد يكون الله
يدبر لك من الرحمة ما لا تراه، ويصرف عنك ما لم تعلم به، ويهيئ
لك بابًا لم يظهر بعد.

إن الإيمان برب الفلق هو الإيمان بأن وراء المرئي تدبيرًا، ووراء
الصمت جوابًا، ووراء الانغلاق فتحةً يعرف الله موضعها.

النور ليس من صنع الظلام

مع أن الفلق يظهر عقب الليل، فالليل ليس الذي يصنعه. لا ينبغي أن تتحول المحنة في وعينا إلى ربِّ يمنحنا النضج بذاته، ولا أن ننسب إلى الألم فضل الهداية استقلالاً. كم من إنسانٍ مر بالمحنة فازداد قسوة، وكم من آخر مر بها فازداد قرباً؛ لأن الذي يهدي من خلالها هو الله.

فالابتلاء مادةٌ، ورب الفلق هو الذي يشق منها المعنى. وقد يمر شخصان بالتجربة نفسها، فيخرج أحدهما أكثر رحمة، ويخرج الآخر أكثر غضباً. ليست النار وحدها التي تصوغ المعدن؛ بل طبيعة المعدن، وكيفية التلقي، وتوفيق الله قبل ذلك كله.

ولهذا لا نقول للمتألم: سيجعلك الألم أفضل حتماً، بل نقول: التجئ إلى رب الفلق أن يخرجك منه أفضل. أسأله ألا يكون الليل مجرد ظلمة أُضيفت إلى عمرك، بل رحماً يولد منه بصرك الجديد.

فليس كل من ابتلى اهتدى، لكن كل من استعان بالله وجد في البلاء طريقاً إليه.

فَلَقُ الْآفَاقِ وَفَلَقُ الْقُلُوبِ

في الكون فلَقُ تراه العيون، وفي القلوب فلَقُ لا يراه إلا الله وصاحبه. قد يظل الإنسان أعواماً في ظلمة فكرة خاطئة، أو عادة تستعبده، أو تصور قاسٍ عن نفسه، ثم يشق الله في داخله نوراً؛ فيرى فجأةً ما كان قريباً منه ولم يكن يبصره.

كم من آيةٍ قرأها المرء مرارًا، ثم قرأها في لحظةٍ خاصةٍ فانفلقت في قلبه عن عالمٍ من المعنى! لم تتغير الآية، لكن القلب بلغ موعد فلقه. وكم من نصيحةٍ سمعها ولم تؤثر فيه، ثم جاءت لحظةٌ أذن الله فيها للكلمة أن تنفذ، فإذا بالأبواب الداخلية تُفتح!

الهداية فلق. والتوبة فلق. واليقين بعد الشك فلق. والرضا بعد السخط فلق. وقد يكون الإنسان حيّ الجسد، لكنه يعيش في ليلٍ من الغفلة، حتى يشق الله ذلك الليل بنور معرفةٍ واحدة، فيولد من جديد.

وإذا كان الله رب فلق الصبح، فهو رب كل انبثاقٍ من ستر، وكل حياةٍ تخرج من موات، وكل بصيرة تولد بعد عمى. فلا تيأس من قلبك إذا طال ظلامه، ولا من قلب من تحب. فالذي يشق الحبة الصلبة عن نبتةٍ لينةٍ قادرٌ أن يشق القسوة عن توبة، والغفلة عن دمة، والنفور عن إقبال.

ليس عليك أن تفتح القلوب بيدك؛ عليك أن تطرقها بالحكمة، وتدعو رب الفلق.

حين يصبح الإنسان أسير ليله القديم

قد ينقضني الليل في الخارج، لكنه يبقى في ذاكرة الإنسان. تمر المحنة، ولا تمر منه؛ ينجو من الحدث، لكنه يظل يعيش تحت سلطانه، وكلما لاح له صباحٌ جديد أعاده الخوف إلى ظلمة الأمس.

وهنا يحتاج القلب إلى معرفة رب الفلق على نحوٍ أعمق: فالله لا يفلق ليل الواقع وحده، بل يستطيع أن يفلق ليل الذاكرة أيضًا. لا يمحو الماضي من سجل الحياة، لكنه يغيّر موقعه في الروح؛ فلا يعود جرحًا ينزف كلما مُسّ، بل معرفةً ناضجة، ورحمةً بالمتألمين، وشاهدًا على لطف الله الذي حملك حين ظننت أنك لن تعبر.

الشفاء ليس أن تنسى بالضرورة، بل ألا تعود الذكرى مالكةً لك. أن تتذكر من غير أن تسقط في القاع نفسه، وأن تنظر إلى ما وقع فتراه فصلًا من حياتك لا تعريفًا كاملاً لك.

فأنت لست ما فعله بك الآخرون، ولا مجموع ما فقدته، ولا تلك اللحظة التي انكسرت فيها. أنت عبدٌ لرب الفلق، وفيك قابليةٌ دائمة لأن يُخرج الله من ليلك صباحًا جديدًا.

الفلق لا يستأذن الليل

ثمة قوةٌ مهيبية في هذه الصورة: حين يأذن الله للصباح، لا يملك الليل أن يعترض. لا تفاوض بينهما، ولا يستطيع الظلام أن يتمسك بالأفق ساعةً إضافية. إنه يتراجع بحكمٍ لا يملك رده.

وهكذا الشرور التي تبدو للإنسان مستقرةً لا حد لها؛ هي عند الله محدودة الأجل. لكل محنة ساعة، ولكل ظالم نهاية، ولكل كيد سقفٌ لا يتجاوزه. قد يطول الليل بمقياس المتألم، لكنه لا يصير أبدئيًا لمجرد أنه طال.

وحتى إذا لم يأتِ الفرج في الدنيا بالصورة التي يرجوها المؤمن، فإن الإيمان بالآخرة هو الفلق الأكبر الذي تُهزم عنده ظلمات الدنيا كلها. هناك تنكشف الحقائق، وترد المظالم، وتجبر القلوب، ولا يبقى ألمٌ بلا معنى ولا صبرٌ بلا جزاء.

إن اليأس ينشأ حين يظن الإنسان أن اللحظة الحاضرة هي الحكم النهائي. لكن المؤمن يرى الدنيا مقطعاً لا القصة كلها، ويرى الليل طوراً لا خاتمة. فما دام الله رب الفلق، فلا يحق للظلام أن يدّعي الأبدية.

فلق العدل بعد ليل الظلم

الظلم من أشد الليالي وطأة؛ لأنه لا يؤلم الجسد أو المصلحة فقط، بل يجرح معنى العدل في النفس. وقد يرى المظلوم ظالمه قوياً، تحيط به الأسباب، ويصدق الناس، بينما تضع الحقيقة بين الضجيج؛ فيشعر كأن الظلام قد وقب في العالم كله.

لكن رب الفلق لا تخفى عليه حقيقة أخفاها الظالم، ولا تضع عنده دمة لم يرها الناس، ولا كلمة قيلت في العتمة، ولا حق تأخر رده. إن عدل الله ليس رهيناً بالمحاكم البشرية ولا بوثائق الأقوياء، وإن كان مأموراً للناس أن يقيموا العدل بما استطاعوا.

وقد يتأخر فلق العدل لحكمة، لكنه لا يضيع. وربما كان بعضه في الدنيا بانكشاف كذبٍ أو انقلاب قوة، وربما ادخر تمامه ليومٍ لا يستطيع فيه ظالم أن يختبئ وراء نفوذه أو روايته.

وليس معنى الثقة بعدل الله أن يسكت المظلوم عن حقه أو يترك السعي لرفعه، بل أن يسعى من غير أن يتحول قلبه إلى نسخة من ظالمه. يطالب بحقه، لكنه لا يعبد الانتقام. يقاوم الباطل، لكنه لا يسمح له أن يسلبه أخلاقه. ويعلم أن البشر قد يخذلونه، أما ميزان الله فلا يختل.

هذه المعرفة فلقٌ في قلب المظلوم قبل أن يأتي فلق الواقع.

بين استعجال الإنسان وتدرج الصبح

الإنسان بطبيعته يحب التحول الفوري: إذا دعا أراد الجواب الآن، وإذا تاب أراد أن تزول آثار سنين في يوم، وإذا حزن أراد أن يصبح معافى في صباح واحد. لكن الصبح نفسه يعلمه التدرج؛ فالنور لا يملأ الأفق دفعةً واحدة، ومع ذلك لا نشك في مجيء النهار حين يظهر خيطه الأول.

لماذا نقبل التدرج في الكون، ونرفضه في أرواحنا؟

قد يبدأ شفاؤك بنوم أهدأ قليلاً، أو يوم يمر دون أن يسيطر عليك الألم كله، أو لحظة تستطيع فيها أن تضحك من قلبك بعد طول انقباض. لا تقل: ما زال الليل موجوداً؛ بل قل: بدأ الفلق.

وقد تبدأ التوبة بندم، ثم مجاهدة، ثم تعثر، ثم قيام. لا تحتقر الحركة البطيئة نحو الله. إن الثبات في الاتجاه قد يكون أهم من سرعة الخطوات.

ورب الفلق الذي يرَبِّي الصباح طورًا بعد طور يرَبِّي قلوب عباده كذلك. فلا تياس لأنك لم تصل، ما دمت صادقًا في السير؛ ولا تطالب روحك بظهيرٍ كاملة وهي لا تزال في أول الفجر.

رَبُّ الفلق لا رَبُّ الفرج وحده

ثمة فرق لطيف بين الفلق والفرج. الفرج قد يُشعر بالنتيجة بعد زوال الشدة، أما الفلق فيحمل صورة العملية نفسها: انشقاق الحجاب، ومقاومة النور للستر، وولادة الجديد من قلب المغلق.

إن معرفتك بالله لا تبدأ بعد انقضاء البلاء فحسب، بل تتكون في لحظة الشق نفسها؛ في المسافة بين الظلام الكامل والنور المكتمل، حيث لا تزال بعض العتمة قائمة، لكن القلب بدأ يستدل بخيط الصبح. وهذه المسافة هي أكثر مواضع الإيمان رهاقة. فبعد ظهور النتيجة يسهل على الناس أن يقولوا: كان في الأمر خير. أما المؤمن فيرى بوادر الخير قبل اكتماله؛ لا لأنه يعلم الغيب، بل لأنه يعرف رب الغيب.

يقول: لا أعلم كيف ستنتهي القصة، لكنني أعلم من يدبرها.

لا أعرف من أين سيأتي المخرج، لكنني أعرف أن خزائن الله لا تنفذ.

لا أزعم أن ما أريده سيقع كما أريد، لكنني أثق أن اختيار رب الفلق خيرٌ من اختياري.

كيف يعيش مَنْ يعرف رب الفلق؟

لا يعني ذلك أنه لا يحزن؛ لكنه لا يؤله حزنه.

ولا يعني أنه لا يخاف؛ لكنه لا يمنح خوفه حقَّ كتابة النهاية.

ولا يعني أنه لا يرى الشر؛ لكنه يراه محاطًا بالقدرة الإلهية.

ولا يعني أنه يضمن لنفسه حياة بلا ليل؛ بل يعرف كيف يمشي

فيه.

الذي يعرف رب الفلق يحمل في داخله جهةً مضيئة ولو أظلمت

الجهات. قد يبكي، لكنه لا يرى الدموع برهانا على الهجر. وقد

يتألم، لكنه لا يظن الألم دليلاً على غياب الرحمة. وقد تضيق به

الأسباب، لكنه يعلم أن رب الأسباب لا تضيق خزائنه.

وهو لا يطالب الفجر أن يأتي قبل مواعده، بل يهيئ قلبه لرؤيته.

فكثيرٌ من الفلق يمرُّ حول الناس فلا يبصرونه؛ لأنهم اعتادوا النظر

إلى الموضع المظلم وحده.

والامتنان نوعٌ من البصر بالفلق. أن ترى ضوءاً صغيراً وسط ما

يؤلمك، لا لتُنكر الألم، بل لتُنصف النعمة. أن تقول: نعم، ما زلت

متعباً، لكن الله أعانني على هذا اليوم. نعم، فقدت شيئاً عزيزاً، لكن

أبواب رحمته لم تُغلق. نعم، خذلني مَنْ وثقت به، لكن الله كشف لي

حقيقةً كانت ستؤذيني أكثر لو بقيت مستورة.

كل التفاتةٍ إلى لطف الله شقٌّ جديد في جدار الخوف.

الصلاة عند حافة الصبح

للفجر في وجدان المؤمن معنى يتجاوز تغير الضوء؛ ففيه صلاةٌ تشهد انتقال العالم من السكون إلى اليقظة. يقوم المؤمن بين يدي رب الفلق والليل لا يزال ممسكًا ببعض أطراف السماء، فيقرأ كلام الله كأنما يشارك الكون ولادته اليومية.

وما أجمل أن يستقبل الإنسان صباحه بالاستعاذة؛ فهو يدخل يومًا لا يعلم ما خبئ فيه. قد يلقاه خير، وقد يمر بابتلاء، وقد تتحرك قلوب نحوه بمحبةٍ أو حسد، لكنه يسبق المجهول كله بالاحتماء بالله.

إننا لا نحتاج إلى معرفة تفاصيل اليوم كي نطمئن، إذا عرفنا رب اليوم.

وحين يقرأ المؤمن سورة الفلق عند الصباح، فكأنه يقول: يا رب، كما أخرجت هذا النهار من ظلمة الليل، فأخرج قلبي من ظلمات نفسه، وافلق لي في كل انسدادٍ طريقًا، وفي كل اشتباهٍ بصيرة، وفي كل شرٍّ حفظًا.

لكلِّ إنسانٍ فلقه الخاص

قد يكون فلقك شفاءً انتظرتَه، وقد يكون قبولًا حكيمًا لما لا يتغير. قد يكون رجوع غائب، وقد يكون تحرير قلبك من انتظار رجوعه. قد يكون فتح بابِ دعوت الله طويلاً أن يفتحه، وقد يكون فهمك أخيرًا أن إغلاقه كان الحماية نفسها.

ليس الفلق دائمًا أن يعطيك الله الشيء؛ أحيانًا أن يغنيك عنه.

وليس دائماً أن يغيّر الناس؛ أحياناً أن يمنحك القوة كي لا يكسرِكَ ما فيهم.

وليس دائماً أن يعيد الماضي؛ أحياناً أن يفتح لك مستقبلاً لا يحتاج إليه.

وليس دائماً أن يزيل الخوف؛ أحياناً أن يملأ قلبك بحضوره حتى تمشي والخوف إلى جوارك، لكنه لا يقودك.

إن رب الفلق أدرى بالصورة التي يحتاج إليها نجاتك. ونحن نطلب غالباً راحة اللحظة، وهو يدبر سلامة الطريق كله.

حين يصير الاسم وطناً

كرر بقلبك: ﴿رَبِّ الْفَلَقِ﴾.

ليس الليل ربك، ولا الحاسد ربك، ولا الماضي ربك، ولا الخوف ربك. ربك هو الذي يملك كل ذلك ولا يملكه شيء؛ الذي يشق الصبح من غير أن يستأذن الظلام، ويُخرج الحي من الميت، ويُخرج من القلوب المرهقة حياةً لم تكن تتوقعها.

إذا أوصدت الدنيا أبوابها، فليس انسدادها دليلاً على انسداد خزائن الله.

وإذا غاب الضوء عن عينك، فليس غيابه دليلاً على انطفائه.

وإذا طال الليل، فليس طوله برهاناً على أنه بلا نهاية.

حسبك أنك في جوار رب الفلق.

فإن جاء الصبح سريعًا شكرت، وإن تأخر صبرت، وإن اختلف
عن الصورة التي تمنيتها وثقت. لأنك لم تستعذ بفلق تصنعه رغباتك،
وإنما استعذت برب الفلق، والرب أعلم بما يربي به عبده، وأرحم به
من اختياره لنفسه.

وهنا تتغير صورة العالم: لا يعود الليل حفرةً مغلقة، بل يصبح
طريقًا يسير نحو الصبح. ولا تعود الشدة جدارًا نهائيًا، بل جدارًا لله
فيه موضع فلق. ولا يعود الخوف دليلًا على ضياعك، بل جرسًا
يعيدك إلى الملجأ.

وفي اللحظة التي يقول فيها القلب صادقًا: ﴿يَرْبِّ الْفَلَقِ﴾، يكون أول
النور قد انشق فيه، ولو بقي الليل من حوله طويلًا.

الفصل الرابع

خَرِيطَةُ الشَّرِّ فِي الْوُجُودِ

تأملات في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

بعد أن دلت السورة القلب على الملجأ، وعرّفته برب الفلق، فتحت أمامه أول دوائر الشر:

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

إنها آية قصيرة، ولكنها تتسع لكل ما يمكن أن يصدر عنه أذى في عالم المخلوقات: ما عرفه الإنسان وما جهله، وما رآه وما استتر عنه، وما يأتيه من خارج نفسه وما ينبت في داخلها. إنها استعاذة من الشر في أوسع دوائره، قبل أن تنتقل السورة إلى نماذجه الأشد خفاءً وخصوصية.

غير أن التعبير القرآني بالغ الدقة: لم يقل سبحانه: «من شر خلقه»، بما قد يوهم أن الخلق شرٌّ في ذاته، بل قال: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾؛ أي من الشر الذي يوجد في بعض ما خلق أو يصدر عنه. أما أصل الخلق فواقعٌ بعلم الله وحكمته، وليس في الكون مخلوقٌ خرج عن سلطان الخالق أو ظهر في ملكه مصادفةً.

وهذا التفريق ضروري؛ لأن الإنسان حين يتألم قد يرى الوجود كله بعين جرحه، فيظن أن العالم شرٌّ محض، وأن الحياة لم تُخلق إلا لتؤذيه. السورة تقرُّ بحقيقة الشر، لكنها لا تسمح له أن يبتلع رؤيتنا إلى الخليقة كلها. هناك شرٌّ في العالم، لكن العالم ليس شرًّا كله؛

وهناك ألم، لكن الوجود لا يختصر في الألم؛ وهناك ظلمات، لكن
السورة بدأت بالفلق.

الشرُّ ليس خالقًا

من أعمق ما تقرره هذه الآية أن كل ما يُخاف منه داخلٌ في دائرة
الخلق:

﴿مَا خَلَقَ﴾.

فالشر لا يملك وجودًا مستقلًا ينازع الله في ملكه، ولا توجد في
الكون قوةٌ تقف بإزاء الله مكافئةً له. كل ما يمكن أن يصدر عنه أذى
مخلوقٌ محدود، له بداية ونهاية، ولا يتحرك إلا في حدود ما أذن الله
به قدرًا لحكمة يعلمها.

وهذه الحقيقة تنزع عن الشر هالته المطلقة. فالخوف يضخم ما
يخشاه حتى يبدو كأنه قوة لا حد لها، لكن كلمة ﴿خَلَقَ﴾ تعيد كل شيء
إلى حجمه: الذي تخافه مخلوق، وربك خالقه. الذي يدبر لك في
الخفاء لا يخرج من علم الله. والذي يملك وسيلةً لإيذائك لا يملك
القدر، ولا يستطيع أن يتقدم خطوةً واحدةً خارج سلطان الله.

ليس في هذا تهوينٌ من الألم، بل تحريرٌ للروح من تأليه مصدره.
فقد يكون العدو قويًا بالنسبة إليك، لكنه ليس قويًا بالنسبة إلى الله. وقد
تكون الحيلة خفيةً عنك، لكنها مكشوفة عنده. وقد تضيق بك
الخيارات، لكن خزائن رب الفلق لا تضيق.

إن التوحيد لا ينفي وجود القوى، بل ينفي استقلالها. لا ينكر الأسباب، بل يردّها إلى مسببها. لا يقول إن النار لا تحرق، بل يقول إن إحراقها ليس خارج سلطان الله. ولا يقول إن الحاسد لا يؤدي، بل يقول إن أذاه لا يملك مفاتيح القدر.

وهكذا يستطيع المؤمن أن يحذر من الشر من غير أن يخضع له في باطنه.

الحكمة في عالم قابل للأذى

قد يسأل القلب المتألم: لماذا يوجد في العالم ما يؤدي؟ لماذا خُلق الليل الذي تستتر فيه المخاوف، والسم الذي يقتل، والنفوس التي تحسد، والقوى التي يمكن أن تُستعمل في الشر؟

وهذا السؤال لا يُجاب عنه بكلمة سطحية؛ لأن عالم الابتلاء لا ينكشف معناه من داخل حادثة واحدة. نحن نرى جزءاً صغيراً من نسيج واسع، وقد نحكم على المشهد كله من خيط يؤلمنا. أما الله فيعلم الأشياء في بداياتها ونهاياتها، ويعلم ما تفتحه من اختيارات، وما يظهر بها من حقائق النفوس، وما يترتب عليها في الدنيا والآخرة.

لقد خلق الله الإنسان في دار امتحان، ومن معنى الامتحان أن تكون الحرية قابلةً للطاعة والمعصية، وأن تكون القوة قابلةً للعدل والظلم، وأن تكون النعم قابلةً للشكر أو الجود. ولو استحال على الإنسان فعل الشر لم يكن اختياره للخير ذا المعنى الأخلاقي نفسه.

لكن وجود الشر الممكن لا يعني أن الله يحب الشر أو يرضاه شرعاً؛ فقد نهى عن الظلم، وحرّم العدوان، وأمر بالعدل والإحسان. إنما أذن بوقوع ما يقع كوناً لحكم تتصل بالابتلاء والجزاء وظهور آثار أسمائه وصفاته، ثم جعل للشر حداً، وللمظلوم حقاً، وللظالم حساباً لا يفلت منه.

وهنا ينبغي للقلب أن يقف بأدب العبودية: نعرف من حكمة الله ما أظهره لنا، ونسلم فيما غاب عنا؛ لا لأن العقل ممنوع من السؤال، بل لأن العقل الصادق يعرف حدود موقعه. فالطفل الذي يتألم من دواء الطبيب لا يرى المشهد الذي يراه الطبيب، فكيف بعلم الإنسان المحدود أمام علم الله المحيط؟

غير أن المؤمن لا يقول للمجروح: لا تتألم، فكل شيء لحكمة؛ فإن في ذلك قسوةً وسوء فهم. بل يجلس إلى جواره، ويواسيه، ويدفع عنه الظلم بما يستطيع، ثم يهمس له بأن ألمه ليس متروكاً في كون أصم، وأن الله فيما خفي حكمة، وفيما وقع جبراً، وفيما صبر عليه جزاء.

الخير الكثير والشر العارض

كثير من الأشياء قد تحمل منفعةً واسعة، ويقع منها شرٌّ عارض أو نسبي. النار تدفئ وتنضج الطعام، لكنها تحرق من يسيء استعمالها. والماء أصل الحياة، لكنه قد يغرق. واللسان وسيلة البيان والذكر،

لكنه قد يكذب ويغتاب. والعقل نعمةٌ تهدي إلى المعرفة، لكنه قد يتحول إلى أداة للمكر والتبرير.

فالشر كثيرًا ما لا يكون في أصل الشيء، بل في موضعه أو مقداره أو طريقة استعماله. والإنسان نفسه يحمل قابليةً عظيمة للرحمة والعمران والعبادة، ويحمل مع ذلك قابليةً للظلم والفساد إذا ترك نفسه بلا تركية.

وهذا يحملنا مسؤوليةً أخلاقية: ألا ننسب إلى الخلق ما صنعته اختياراتنا. فالمال ليس هو الذي ظلم، بل النفس التي عبدته. والقوة ليست شرًّا، بل اليد التي استعملتها في العدوان. والكلمة ليست مذنبه، بل القلب الذي شحنها بالسم ثم أطلقها.

وما أكثر ما يلعن الإنسان النعمة لأنه أساء توجيهها! يُفسد السلطة ثم يقول إن السلطة فساد، ويستعمل المعرفة في التضليل ثم يتهم المعرفة، ويحوّل الاختلاف إلى عداوة ثم يزعم أن التنوع أصل الشر. والحقيقة أن كثيرًا من الشر ينشأ حين تنفصل النعمة عن الهداية.

فالإنسان بلا وحي قد يحوّل أجمل ما أُعطي إلى وسيلة دمار. يجعل العقل مكرًّا، واللغة كذبًا، والجمال فتنة، والغنى طغيانًا، والقوة استكبارًا. أما الهداية فتعيد كل نعمة إلى موضعها، فيصير العقل سبيلًا إلى الحق، واللسان وعاءً للصدق، والقوة حمايةً للضعيف، والمال بابًا للإحسان.

الشر الذي نراه والشر الذي لا نراه

في كلمة ﴿مَا﴾ اتساعٌ رحيم؛ فهي تضم ما نعرفه وما لا نعرفه. ولو كُلف الإنسان أن يسمي كل شر يستعيز منه لعجز؛ لأن إدراكه محدود، ولأن بعض الأخطار لا يظهر إلا بعد أن يمضي زمن، وبعضها يُصرف عنه فلا يعلم أنه كان قريباً منه.

كم من طريقٍ بدا لك خيراً، وكان في نهايته أذى فصرفك الله عنه! وكم من شيءٍ حزنْتَ لفواته، ثم تكتشف لك أن الفوات كان عين الحفظ! وكم من إنسانٍ تمنيت قربهِ، ثم حمدت الله حين باعد بينك وبينه!

نحن لا نعرف الشر دائماً حين يقبل، فقد يلبس ثوب المصلحة، ويأتينا في صورة فرصة، أو مدح، أو علاقة، أو رغبةٍ طال انتظارها. وقد نكره شيئاً يكون في باطنه خير، ونحب شيئاً يخفي لنا تعباً. ولهذا كانت حاجتنا إلى الاستعاذة أوسع من حاجتنا إلى المعرفة وحدها.

أنت لا تقول: يا رب، أعطني مما عرفت شرّه فحسب؛ بل تستعيز به من شرّ تجهله، ومن أمرٍ تظنه خيراً وليس كذلك، ومن اختيارٍ تميل إليه نفسك ولا تعلم عاقبته.

وفي هذا تحريراً من الغرور المعرفي. فربما كان الإنسان ذكياً، واسع الخبرة، لكنه لا يرى إلا ظاهر اللحظة. والاستعاذة اعترافٌ بأن علم الله محيطٌ حيث يقف علمنا عند الحافة.

الشر القريب المتكرر

قد ننتبه إلى الشر حين يأتي من عدو، لكننا نغفل عنه حين يأتي من شيء نحبه. وربما كان أخطر الشرور ما تسلّل في ثوب أمانة.

قد تكون الشهرة حلماً جميلاً، ثم تحمل إلى القلب تعلقاً بالأنظار يفسد إخلاصه. وقد يكون المال باباً للسعة، ثم يصير سجنًا يخاف صاحبه أن يفقده. وقد تتحول المحبة إلى تملك، والنصيحة إلى استعلاء، والغيرة على الحق إلى انتصارٍ للنفس.

فالشر لا يحمل دائماً وجهًا قبيحًا. لو جاء بكل قبحه ما تبعه أحد، لكنه يتزيّن، ويستعير أسماء الخير، ويدخل من الأبواب التي نحبها. ولهذا لا يكفي أن يسأل الإنسان: هل هذا الشيء جميل؟ بل عليه أن يسأل: إلى أين يقود قلبي؟ ماذا يفعل بعلاقتي بالله؟ هل يزيدني صدقًا ورحمة، أم يجعلني أكثر عبودية لنفسي؟

وقد يكون ما تحبه خيرًا في ذاته، لكن تعلقك المفرط به هو موضع الشر. فالمخلوق لا يحتمل أن تجعله مصدر أمنك المطلق؛ لأنه زائل ومتغير. كل ما أحببته دون الله على وجه العبودية تحوّل خوف فقده إلى قيد.

ومن رحمة الله أن يطهّر محبتنا للمخلوقات، فلا يمنعنا من حبها، بل يمنعها من احتلال الموضع الذي لا يليق إلا به.

الشر الذي نصنعه بأيدينا

لا يجوز أن تتحول الاستعانة إلى وسيلةٍ يعفي بها الإنسان نفسه من المسؤولية. فليس كل ما يصيبه قادمًا من حاسدٍ بعيدٍ أو عدوٍ خفي؛ قد يكون بعض ألمه ثمرة اختيارٍ خاطئ، أو إهمالٍ متكرر، أو كلمةٍ لم يحسب أثرها، أو حقٍّ ضيعه.

ومن الصدق أن يسأل المرء عند البلاء: ما نصيبي من المسؤولية؟ هل دخلت هذا الطريق رغم وضوح علاماته؟ هل وثقت بمن لا يستحق لأنني كنت أريد تصديق الوهم؟ هل أهملت صحتي ثم نسبت الألم إلى أسباب غامضة؟ هل أفسدت العلاقة بكبريائي، ثم بحثت عن حملته الذنب؟

ليس المقصود جلد النفس، بل إنقاذها من التكرار. فالاعتراف بالخطأ فلق؛ لأنه يشق ظلمة التبرير، ويمنح الإنسان قدرةً على التعلم.

والذي ينسب كل شر إلى الآخرين يظل عاجزًا؛ لأنه سَلَّمهم مفاتيح حياته. أما من يرى ما يستطيع إصلاحه في نفسه، فقد استعاد جزءًا من حريته. يستعِذ بالله من الشر، ويستغفره مما شارك في صنعه، ويطلب منه بصيرةً تمنعه من إعادة إنتاجه.

إن التوبة من أجمل صور الاستعانة العملية؛ فأنت لا تطلب من الله أن يحميك من نتيجة الذنب فقط، بل تفر إليه من الذنب نفسه.

حين يختلط الشر بالآلم

ليس كل ما يؤلم شرًّا، وليس كل ما يريح خيرًا. وهذه من أصعب الحقائق على النفس؛ لأنها تقيس الأشياء غالبًا بمقدار لذتها أو وجعها العاجل.

الدواء مرّ، لكنه خير. والجراحة مؤلمة، لكنها تنقذ. والنصيحة الصادقة قد تجرح غرورك، لكنها تصلح طريقك. وحرمان النفس من شهوة محرمة يوجعها لحظة، لكنه يحررها من عبودية طويلة.

وفي المقابل، قد تكون اللذة بوابة شر: كلمة مدح تنفخ الكبر، أو مالٌ سريع يأتي من حرام، أو انتصارٌ للنفس يُخسر الإنسان أخلاقه. فليس ميزان الخير والشر هو الإحساس العاجل وحده، بل المال، والحق، وأثر الشيء في الدين والقلب والحياة.

ومن هنا يحتاج العبد إلى نور الوحي؛ لأن النفس قد تسمي ما تشتهيهِ خيرًا، وما يحدُّ من هواها شرًّا. والوحي يعيد تعريف الأشياء بعيدًا عن تقلب المزاج: الخير ما قَرَّبَ إلى الله وأقام الحق وأصلح النفس والعالم، والشر ما أبعد وأفسد وظلم، وإن جاء في ثوب اللذة.

وربما استعاذ الإنسان من أمرٍ هو في حقيقته تربية، وطلب بقاء شيءٍ هو مصدر علقته. لذلك لا تكتمل الاستعاذة إلا بالتسليم: يا رب، أعذني من الشر كما تعلمه أنت، لا كما يتوهمه خوفي فقط.

شرُّ الإنسان حين ينفصل عن فطرته

الإنسان من أكرم ما خلق الله، لكنه قد يهبط باختياريه حتى يصير مصدرًا لأذى يفوق أذى الوحوش. فالوحش يفتك بدافع الغريزة، أما الإنسان فقد يخطط للظلم، ويزينه باللغة، ويصنع له فلسفة، ثم يطلب من ضحيته أن تصدق أنه يفعل ذلك لمصلحتها.

وهنا يظهر أن أخطر الشر ليس في القدرة وحدها، بل في القدرة حين تنفصل عن الضمير. العلم بلا أخلاق قد يجعل الأذى أكثر دقة، والقوة بلا تقوى توسع دائرة الظلم، والذكاء بلا هداية يمنح الباطل وسائل متقدمة للدفاع عن نفسه.

ما الذي يحفظ الإنسان من أن يتحول إلى شرٍّ على غيره؟

أن يعرف أنه عبد، وأن القوة أمانة، وأن كل قدرة مُنحت له سيُسأل عن وجه استعمالها. وأن يرى في الآخر إنسانًا كَرَّمه الله، لا مادةً لمصلحته ولا رقمًا في مشروعه. وأن يؤمن بيومٍ تقف فيه الألقنة والرتب والثروات خارج الحساب، ويدخل الإنسان وحده بما قدّم.

إن الإيمان بالآخرة أحد أعظم الحواجز أمام الشر؛ لأن من يوقن أنه سيقف بين يدي الله لا يرى الجريمة قد انتهت حين أفلت من أعين الناس. قد تختفي الوثيقة، ويسكت الشاهد، ويموت المظلوم، لكن شيئًا لا يسقط من علم الله.

شَرُّ الْجَمَاعَةِ حِينَ يَضِيعُ الضَّمِيرُ الْفَرْدِي

قد يفعل الإنسان داخل الجماعة ما كان يخجل أن يفعله وحده. يذوب ضميره في الحشد، ويمنح نفسه عذراً جاهزاً: الجميع يفعلون ذلك. وهكذا تتسع الشرور حين تتوزع المسؤولية حتى يظن كل فرد أنه غير مسؤول.

قد تظلم قبيلةٌ باسم العصبية، أو جماعةٌ باسم الولاء، أو دولةٌ باسم المصلحة، أو حشدٌ باسم الغضب. وتتغير الأسماء، لكن المظلوم يبقى مظلوماً. لا يُطهر الباطل أن يصفق له كثيرون، ولا يصبح الشر خيراً لأنه ارتدى شعاراً محبوباً.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ يجعل المؤمن يقظاً من شر الجماعات كما يحذر شر الأفراد؛ بل قد يكون الشر الجمعي أشد، لأن صاحبه يستمد من الجماعة شعوراً كاذباً بالبراءة.

الإيمان يعيد الفرد إلى مسؤوليته: ستأتي الله وحدي. لن تحمل جماعتك عنك ظملاً ارتكبته لأجلها، ولن يُقبل منك أن تقول: أطعت لأن الجميع أطاعوا. ميزان الحق فوق روابط الدم والحزب والمصلحة.

وأول الاستعاذة من شر الجماعة أن تحمي بصيرتك من الذوبان، وأن تظل قادراً على قول: هذا حق ولو خالفه القريب، وهذا ظلم ولو فعله من أحب.

ألا نصير ما نخشاه

حين نقرأ: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، قد نتخيل أنفسنا دائماً في موقع الضحية. لكن السورة تضع أمامنا سؤالاً أكثر إيلاماً: هل يمكن أن يكون فينا شرٌّ يستعيز الآخرون بالله منه؟

هل خرجت من ألسنتنا كلمةٌ ظل أثرها في قلب إنسان سنوات؟ هل استعملنا ضعف أحدهم لنثبت قوتنا؟ هل نقلنا خبراً أفسد علاقة؟ هل حسدنا نعمة، أو شمتنا بعثرة، أو تجاهلنا مظلوماً لأن الظالم قريب؟

ليس المقصود أن يعيش الإنسان متهماً لنفسه بلا رحمة، بل أن تظل في قلبه خشيةٌ أخلاقية: يا رب، كما أحتمي بك من شر الخلق، فاحمِ الخلق من شر نفسي.

هذه الدعوة تنقل التدين من دائرة الحماية الذاتية إلى دائرة المسؤولية. فما قيمة أن تتحصن بالمعوذات ثم يبيت الناس خائفين من لسانك؟ وما معنى أن تستعيز من الحاسد وأنت لا تطهر قلبك من الغيرة؟ أو تستعيز من النفاثات وأنت تعقد بكلماتك عُقداً في حياة الآخرين؟

الحفظ الكامل أن يحفظك الله من أن يؤذى بك أحد.

لا تجعل معرفة الشر تفسد نقاءك

بعض الناس إذا اكتشف وجود الشر فقد قدرته على الثقة، وأصبح يرى الخيانة خلف كل لطف، والحسد خلف كل إعجاب، والمصلحة

وراء كل محبة. كأنه أراد أن يحمي نفسه من السذاجة، فوقع في سجن الريبة.

لكن سورة الفلق لا تعلمنا سوء الظن، بل تعلمنا حسن الالتجاء. هناك شر في العالم، نعم، لكن هناك أيضًا وفاء ورحمة وقلوب صادقة. ومعرفة الشر ينبغي أن تمنحنا بصيرةً لا قسوة، وحذرًا لا ظنونًا، وحدودًا سليمة لا عزلةً تامة.

النقاء ليس جهلاً بطبيعة العالم؛ النقاء الحقيقي أن تعرف ما فيه من ظلمة، ثم تختار ألا تصبح ظلمةً أخرى.

والقلب المؤمن لا يحمي نفسه بالكراهية؛ فالكراهية جدارٌ يمنع النور كما يمنع الجرح. يحمي نفسه بالله، وبالحكمة، وبالتثبت، وبوضع الناس في مواضعهم. لا يمنح ثقته بلا بصيرة، لكنه لا يحرم الصادقين منها بسبب خيانة شخص.

إن الشر ينتصر مرتين إذا أذاك أولاً، ثم حوّلك بعد الأذى إلى إنسانٍ عاجز عن الحب والخير. والاستعاذة العميقة أن يحفظ الله فيك قدرتك على الصفاء من غير غفلة، وعلى الرحمة من غير ضعف، وعلى الثقة من غير سذاجة.

الشر محدود، والرحمة واسعة

افتتحت الاستعاذة باسم رب الفلق، ثم قالت: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾. فمهما اتسع مدلول الشر، يظل مسبوقاً بالربوبية ومحاطاً بها.

وهذا هو الميزان الذي يحمي النفس من اليأس. لا ننكر الجراح، لكننا لا نجعلها تعريفاً للوجود. لا نغضب أعيننا عن ظلم البشر، لكننا لا ننسى لطف الله. لا نقلل من قوة الأذى، لكننا لا نرفعه فوق قدره.

الشر جزء من مشهد الابتلاء، وليس الحقيقة النهائية. والنهاية ليست للغاسق، بل للفلق؛ وليست للحاسد، بل لرب الحاسد والمحسود؛ وليست للعقدة، بل لمن بيده حلها.

حين يقول المؤمن: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، فإنه يُلقي في جوار الله قائمةً لا يستطيع إتمامها. يضع عنده كل خطرٍ يعرفه، وكل شرٍ يجله، وكل ضعفٍ في نفسه، وكل باب قد يأتيه منه الأذى. ثم يمضي أخفَّ قلباً؛ لأنه لم يعد مطالباً بأن يحيط بما أحاط به الله.

يا رب، أعذنا من شر ما نرى فلا نقدر عليه، ومن شر ما لا نراه فلا نحتاط له، ومن شر نحبّه لخفاء عاقبته، ومن شر نكرهه وقد يكون في طريقه خير، ومن شر غيرنا إذا قصدنا، ومن شر أنفسنا إذا انحرفت بنا.

وأعذنا من أن نشغل أعمارنا بتتبع الشر حتى نغفل عن الخير، أو نراقب الحاسدين حتى ننسى الشاكرين، أو نخاف الظلام حتى لا نرى الفلق.

فكل ما نخافه مخلوق، وأنت الخالق.

وكل ما يخفى علينا معلوم، وأنت العليم.

وكل ما يعجزنا محدود، وأنت القدير.

وكل ليلٍ مهما اشتد واقِعٌ في ملك رب الفلق.

الفصل الخامس

حِينَ يَقْبُ اللَّيْلُ فِي الرُّوحِ

تأملات في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾

بعد أن استعادت السورة من الشر في دائرته الواسعة: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، اقتربت من صورة مخصوصة تهزّ الوجدان الإنساني منذ أقدم العصور:

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

إنها صورة الليل حين تشتد ظلمته، ويدخل سواده في الأشياء حتى يطوي معالمها. يغيب المألوف وراء ستار العتمة، وتلتبس المسافات، ويصبح القريب مجهولاً، ويتحول الصوت الصغير إلى احتمال كبير؛ لأن العين التي كانت تضبط الخيال لم تعد ترى.

وليس الليل شراً في ذاته؛ فقد جعله الله سكناً ولباساً، وفي هدوئه راحة الأبدان، وصفاء المناجاة، وسرّ الخلوة. إنما تستعيز السورة من شر ما يقع فيه حين يغشى الظلام الأشياء ويستتر المؤذي. ودقة التعبير تمنعنا من اتهام الوجود: نحن لا نستعيز من الليل، بل من شر الغاسق ﴿إِذَا وَقَبَ﴾.

فالشيء الواحد قد يكون باب رحمة لإنسان، وموضع خطرٍ لآخر؛ وقد يكون نعمةً في حال، ويحمل ضرراً في حال. والقرآن يعلمنا أن نضع الشر في موضعه، فلا نعمم الخوف حتى يبتلع الجمال كله.

الغاسق حين يدخل

في لفظ ﴿وَقَبْ﴾ إichاء بالدخول والتغلغل والاستقرار. ليس مجرد ظلام يُرى في الأفق، بل ظلمةٌ تنفذ في الفضاء وتحيط بالأشياء. وكأن الليل لا يقف عند الأبواب، بل ينساب في الشقوق، ويدخل البيوت والدروب، ثم يمتد إلى النفس نفسها.

فالإنسان لا يتأثر بما حوله بحواسه وحدها؛ إن المشهد الخارجي يجد طريقه إلى الداخل. قد يهبط الليل على المدينة، ثم يهبط ليلٌ آخر على القلب: تسكن الأصوات، وتختفي الشواغل، فيسمع المرء ما كان ضجيج النهار يخفيه من آلامه.

في النهار يستطيع الإنسان أن يهرب إلى الأعمال والوجوه والطرق، أما في الليل فتسترده نفسه. تظهر الذكريات التي أُلْهِمَها، والأسئلة التي دفنها، والمخاوف التي غطاها بالحركة. ولهذا قد يكون الليل عند بعض الأرواح أوسع من ساعاتٍ بين غروب وشروق؛ إنه موعدٌ انكشاف الداخل.

وكم من إنسانٍ لا يخاف ظلمة الغرفة، لكنه يخاف ما تقوله له نفسه إذا أطفئت المصابيح.

ظلمة الخارج وظلمة الداخل

للظلام صورتان: ظلامٌ يحجب الأشياء عن العين، وظلامٌ يحجب الحقائق عن القلب. والأول ينتهي بطلوع الشمس، أما الثاني فقد يبقى في وضح النهار.

قد يمشي الإنسان تحت الشمس، وفي روحه غاسقٌ قد وقب: حزنٌ ثقيل، أو شكٌ مستحکم، أو يأسٌ يُطفئ احتمالات الغد. يراه الناس بينهم، يتحدث ويبتسم ويؤدي واجباته، ولا يعلمون أن في داخله ليلاً لا تؤذن فيه الطيور للصباح.

إن للقلوب ليااليها التي لا تقيسها الساعات. لحظةٌ فقدٍ واحدة قد تفتح ليلاً يمتد أعواماً، وكلمة خذلان قد تطفئ نوافذ كانت مضيئة، وظلمٌ يتكرر قد يجعل الإنسان يشعر أن العالم كله قد أغلق في وجهه.

وسورة الفلق لا تُنكر هذا الليل الداخلي ولا توبّخ صاحبه عليه. إنها تمنحه كلماتٍ يحمل بها نفسه إلى الله:

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

كأنها تقول له: إذا دخل الليل في روحك، فلا تخجل من طلب النجاة. أنت لا تعصي الله لأنك حزنت، ولا تفقد إيمانك لمجرد أنك خفت؛ لكن لا تدع الحزن يتحول إلى عقيدة تقول إن لا فلق بعده، ولا تدع الخوف يقنعك بأنك بلا رب.

حين يكبر المجهول

ليست الظلمة شيئاً مادياً فحسب؛ إنها غياب الرؤية، وغياب الرؤية يفتح الباب للتوقع. وما يخافه الإنسان في الليل ليس دائماً الشيء الموجود، بل ما يحتمل أن يكون موجوداً.

وهذا هو جوهر كثير من القلق: العيش تحت سلطان الاحتمال.

قد لا يكون الخطر قد وقع، لكن العقل يصنع له صوراً، ثم يتفاعل الجسد والنفس معها كأنها حقيقة. تتكاثر الأسئلة: ماذا لو مرضت؟ ماذا لو خسرت؟ ماذا لو خذلني من أثق به؟ ماذا لو جاء الغد بما لا أطيع؟

ولأن المستقبل غاسقٌ بالنسبة إلى المعرفة البشرية، يحاول الإنسان أن يضيئه بالتوقع. لكن التوقع لا يكشف الغيب؛ إنه قد يملأه بمخاوف الحاضر فقط. يظن المرء أنه يستعد للمستقبل، بينما هو يعدّب نفسه بسيناريوهات لم يكتبها الله عليه.

هنا تعلمه السورة ألا يقتحم الغيب بخياله، بل أن يسلمه لرب الفلق. ليس عليك أن تضيء المستقبل كله، وإنما أن ترى موضع قدمك الآن، وأن تثق بمن يعلم الطريق كاملة.

وكما أن المسافرين في الليل لا يحتاج إلى مصباحٍ يكشف له نهاية الصحراء، بل إلى ضوءٍ يكفي خطواته التالية، فإن الله يمنح العبد من الهداية والقوة ما يكفي يومه. أما قوة الغد فتأتي مع الغد، إذا جاء.

ومن الظلم للنفس أن تطالبها اليوم باحتمال آلام أعوامٍ لم تقع.

الشر يحب الاستتار

في الليل تتراجع الرقابة، ويجد المجرم ستاراً، وتتحرك الكائنات المؤذية، ويصعب على الإنسان تمييز ما حوله. لذلك جاءت الاستعاذة من شر الغاسق إذا دخل.

لكن للشر ليلًا معنويًا أيضًا؛ إنه يحب الخفاء، ويتكاثر حين تغيب البصيرة والمحاسبة. فالظلم يطلب غرفةً لا يدخلها الشهود، والكذب يطلب روايةً لا تُفحص، والشهوة المحرمة تطلب لحظةً يشعر فيها الإنسان أنه لا يُرى.

وهنا يستيقظ الإيمان ليقول: قد تغيب عيون الخلق، لكن عين الله لا تغيب. وما أظلم الليل بالنسبة إلى الإنسان هو عند الله مكشوفٌ لا يستتر منه شيء.

إن التقوى فلقٌ داخلي يرافق المؤمن في عتماته؛ فلا يحتاج إلى رقابة الناس كي يكون أمينًا، ولا إلى تصفيقهم كي يفعل الخير، ولا يمتنع عن الجريمة خوف الفضيحة وحدها. إنه يعرف أن الخلوة لا تعني الغياب عن الله، وأن أكثر لحظاته استتارًا هي لحظةٌ مكشوفة في علمه سبحانه.

وما أعظم الإنسان حين يستطيع الشر ولا يفعله؛ لا لعجز، بل لأن نور المراقبة قد دخل قلبه.

حين يوقب الحزن

الحزن في بدايته شعورٌ إنساني رحيم؛ يدل على أن شيئًا عزيزًا مر من هنا. وليس المطلوب من القلب أن يكون حجرًا لا يتأثر بال فقد. فقد حزن الأنبياء، وبكى رسول الله ﷺ، وابيضت عينا يعقوب عليه السلام من الحزن.

لكن الحزن قد يتحول من زائرٍ إلى غاسقٍ يَقب؛ يدخل في رؤية الإنسان لنفسه وربّه ومستقبله، فيرى كل شيء بلون الفقد. لا يعود يقول: وقع لي أمرٌ محزن، بل يشعر أن الحياة كلها حزن، وأن ما مضى هو أجمل ما سيكون، وأن القادم لا يحمل شيئاً يستحق الانتظار.

هنا يصبح الحزن بحاجةٍ إلى استعادة؛ لا لأن الوفاء للمفقود خطأ، بل لأن الحزن إذا استولى على الروح حجب عنها بقية نعم الله، وقد يحول الذكرى من محبة إلى سجن.

والتعافي لا يعني الخيانة لمن فقدناه، ولا محو أثره. إنما يعني أن نسمح لرحمة الله أن تفتح في القلب مكاناً للحياة إلى جوار الذكرى. فالقلب واسعٌ بأمر الله؛ يستطيع أن يشواق، وأن يبتسم أيضاً؛ أن يحمل الراحل بمحبة، وأن يمشي نحو ما بقي من عمره.

رب الفلق لا يطلب منك أن تنكر ليلك، بل أن تؤمن بأن له آخر.

حين يوقب اليأس

الخوف يقول: قد يقع الشر، أما اليأس فيقول: لن يأتي الخير. ولهذا كان اليأس أشد ظلمات الروح؛ لأنه لا يكفي بوصف اللحظة، بل يصدر حكماً نهائياً على المستقبل وعلى قدرة الله.

قد يتأخر الفرج، فيحوّل الإنسان التأخير إلى استحالة. وقد يفشل مرةً، فيجعل الفشل هوية. وقد يُخذل من شخص، فيحكم على البشر

جميعًا. وقد يدعو ثم لا يرى الجواب في الصورة التي أرادها، فيظن أن الدعاء ضاع.

هكذا يوقب اليأس: يبدأ من حادثة محدودة، ثم ينتشر حتى يغطي أفق الحياة كله.

وسورة الفلق تقاومه باسمها قبل كلماتها؛ فالفلق هو الدليل الكوني المتجدد على أن الظلمة لا تملك حق إصدار الحكم الأخير. كل صباح يكذب اليأس. كل خيط نورٍ يقول إن ما بدا مستغرقًا للأفق لم يكن إلا مرحلة.

ليس الرجاء أن تتوهم أن الأشياء ستجري دومًا كما تشتهي، بل أن توقن أن رحمة الله لن تنقطع عنك، وأنه قادرٌ على أن يخلق لك خيرًا بصورةٍ لم تتخيلها. قد لا يعيد إليك الباب الذي أغلق، لكنه يريك أفقًا لم تره وأنت واقف أمامه.

اليأس يتعلق بصورةٍ واحدة للفرج، فإذا فاتت ظن أن الفرج كله فات. أما الرجاء فيتعلق بالله، والله صورٌ من اللطف لا يحصيها الخيال.

ظلمة الذنب

وقد يكون الغاسق الذي يوقب في الروح ذنبًا يتكرر حتى يظلم به القلب. يبدأ الأمر بخاطرة، ثم خطوة، ثم عادة، ثم يشعر الإنسان أن الرجوع قد صار بعيدًا. وكلما حاول التوبة همس له اليأس: لقد وعدت من قبل ثم عدت؛ فما معنى أن تعود الآن؟

وهذه من حيل الظلام: لا يكتفي بأن يوقعك في الذنب، بل يريد أن يقنعك بأنك صرت الذنب نفسه. يخلط بين فعلك وهويتك، حتى تقول: أنا فاسد، بدل أن تقول: أخطأت وأستطيع أن أتوب.

لكن رب الفلق الذي يشق الليل قادرٌ أن يشق العادة المستحكمة. والتوبة لا تفقد صدقها لأنك احتجت إليها مرات؛ بل حاجتك المتكررة إليها دليل افتقارك. ما دمت تكره المعصية وتندم وتعود، فلا تجعل تكرر السقوط حجةً لتترك القيام.

إن الشيطان لا ييأس من إضلالك، أفتيأس أنت من رحمة الله؟ وقد يكون أول فلق التوبة أن ترفض التعريف الذي منحه الذنب لك. أنت عبدٌ أخطأ، ولست خطأً يمشي على الأرض. لك بابٌ مفتوح ما دامت الروح في الجسد، وربك يحب التوابين، لا الذين لم يعرفوا ضيقاً قط؛ فهؤلاء لا وجود لهم بين البشر.

ظلمة الفكرة

ليست كل العتبات مشاعر؛ بعضها أفكار تتخفى في صورة حقائق. فكرةٌ عن الله أنه تركك، أو عن نفسك أنك بلا قيمة، أو عن العالم أنه لا يضم إلا الأشرار، أو عن المستقبل أنه مغلق.

إذا تكررت الفكرة واستقرت، صارت عدسةً يرى الإنسان عبرها كل شيء. فإذا أحبه أحد شك فيه، وإذا نجح قلل من نجاحه، وإذا لاح له خير بحث عن الوجه المظلم فيه. لا لأنه اختار التشاؤم دائماً، بل لأن الغاسق الفكري قد وقب حتى صار النور غريباً عن عينيه.

وهنا يحتاج الإنسان إلى أن يميز بين ما يشعر به وما هو حقيقة. قد تشعر أنك متروك، لكن الشعور ليس وحيًا. وقد تحس أن لا أحد يحبك، لكن إحساس اللحظة لا يحيط بقلوب الناس. وقد يبدو لك المستقبل مسدودًا، لكنك لا تعلم ما كتبه الله بعد هذا المنعطف.

التدبر فلق للأفكار؛ لأن القرآن يضع أمام النفس حقيقةً أعلى من تقلباتها. لا يقول لك: صيِّق كل ما تشعر به، بل اعرض شعورك على معرفة الله. الحزن صادق بوصفه حزنًا، لكنه قد يكذب حين يفسر لك الوجود.

والقلب يحتاج إلى من يرحم ألمه، والعقل يحتاج إلى نورٍ يصح تفسيره.

لا تتخذ قراراتك في ذروة الغاسق

حين يوقب الليل في الروح تضيق الرؤية، وقد يظن الإنسان أن ما يراه في تلك اللحظة هو المشهد كله. ولهذا فإن من الحكمة ألا يصدر أحكامًا نهائية على نفسه وحياته وهو في ذروة الألم.

لا تقرر تحت سلطان اليأس أن الطريق انتهى.

ولا تحكم في لحظة خذلان أن كل الناس خائنون.

ولا تجعل ساعة غضبٍ تهدم علاقةً بننتها سنوات.

ولا تكتب نهاية قصتك في فصلٍ مظلم.

انتظر شيئاً من الفلق. استعن بالله، واستشر مَنْ تثق بدينه وعقله،
ونم إن استطعت، وصلِّ، واترك للمشاعر فرصةً كي تهدأ. فكم من
قرارٍ بدا ضرورياً في الليل، ثم انكشف في الصباح أنه كان صوت
الجرح لا صوت الحكمة.

ليس التأجيل دائماً ضعفاً؛ قد يكون رحمةً تمنح بها قلبك وقتاً
ليستعيد بصره.

ليل الوحدة

من أقسى صور الغاسق أن يشعر الإنسان أنه وحده؛ لا بمعنى
غياب الأجساد، بل غياب الفهم الصادق. قد يحيط به الناس ولا يجد
قلباً يحمل معه شيئاً من ثقله. يتكلم، فتختصر تجربته في نصيحة
باردة؛ أو يصمت، لأن الشرح نفسه صار مرهقاً.

الوحدة ليست خلو المكان، بل أن يكون فيك عالمٌ لا يراه أحد.

لكن سورة الفلق تفتح في أقصى الوحدة صحبةً لا تنقطع. عندما
تقول: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، فأنت لا ترسل كلماتك في فضاءٍ صامت؛
إنك تخاطب مَنْ يعلم السر وأخفى، وَمَنْ عرف ما في قلبك قبل أن
تجد له اسماً.

الله لا يراك من خارج ألمك فقط، بل يعلم كيف يمر الألم فيك،
وما الذي أثاره، وما الذي عجزت عن قوله. قد لا تجد إنساناً يفهم
التجربة كاملة، لأن البشر لا يدخلون إلى أعماق بعضهم، أما خالق
القلب فيعلم موضع كل كسرٍ فيه.

وليس معنى الأنس بالله الاستغناء عن الصحبة البشرية؛ فقد خلقنا محتاجين إلى المودة والتراحم. لكنه يمنع الوحدة من أن تصبح سقوطاً نهائياً. إذا غاب الخلق أو عجزوا، بقي الباب الذي لا يحتاج إلى موعد ولا إلى شرح كامل.

والوحيد الذي عرف الله ليس بلا أحد.

الليل الذي نصنعه للآخرين

كما يوقب ليلٌ فينا، قد نصنع نحن ليلاً في أرواح الآخرين. كلمة احتقارٍ قد تظل في ذاكرة طفل حتى يكبر. وسخريةٌ أمام الناس قد تجعل إنساناً يخشى الظهور أعواماً. وخيانة ثقة قد تحوّل قلباً مطمئناً إلى قلبٍ يترقب الأذى.

نحن لا نعرف دائماً إلى أي عمقٍ تدخل كلماتنا. قد ننسى العبارة بعد دقائق، بينما تبقى في الآخر غاسقاً قد وقب.

ولهذا لا يكفي أن نستعيز من ظلمات الآخرين، بل ينبغي أن نتوب من كل ظلمة نشرناها. وأن نسأل: هل يشعر الناس بالأمان قربنا؟ هل تحفظ ألسنتنا ضعفهم؟ هل نستتر زلاتهم أم نستعملها ضدهم عند الخصومة؟ هل نعطيهم نوراً، أم نجعلهم يعمدون من مجالسنا أكثر شكاً في أنفسهم؟

قد لا نستطيع أن تكون فلقاً لكل الناس، لكن لا تكن ليلاً في قلب أحد.

وإذا علمت أنك جرحت، فلا يصدنك الكبر عن الاعتذار. كلمة صادقة قد تشق في الجرح نافذة، والاعتراف لا يصغر الإنسان، بل يعيده إلى إنسانيته.

العبادة في جوف الليل

ليس الليل موضع الخوف وحده؛ إنه أيضًا موضع القرب. في جوف الظلمة، حين تنام العيون وتخف أصوات العالم، يقوم عبدٌ إلى ربه، فيتحول الغاسق من ستارٍ للوحشة إلى محراب.

إن الليل نفسه الذي قد تتحرك فيه الشرور هو الليل الذي تنزل فيه على قلوب العابدين سكينَةٌ لا يعرفها ضجيج النهار. وهذا من بديع التربية: ليس الحل دائمًا أن تهرب من الزمن أو المكان الذي يخيفك، بل أن تعمّره بمعنى جديد.

قد يكون الليل عندك ساعة قلق، فإذا جعلت فيه نصيبًا من صلاة وذكر وقراءة صار موعدًا للأنس. لا يعني ذلك أن المشاعر ستتغير في ليلة واحدة، لكنك تعلم روحك تدريجيًا أن الظلمة ليست خالية من الله.

وما أجمل أن يخرج صوت القرآن في غرفة مظلمة؛ كأن القلب يعلن أن للنور مصدرًا لا يحتاج إلى شمس.

لا تلعن الليل؛ ابحث عن نجومه

حين يحل البلاء، قد لا تستطيع أن ترى شمسًا كاملة، لكن الله يضع في الليل نجومًا تهدي المسافرين. كلمة من محب، وذكرى نجاة قديمة، وآية تطرق القلب في موعدها، وقدرة على الصبر لم تكن تظنها فيك.

الامتنان في الشدة ليس إنكارًا للألم، بل بحث عن النجوم. تستطيع أن تقول: أنا متألم، ومع ذلك ما زالت هنا نعمة. أنا وحيد، لكن الله أرسل إليّ هذا القلب. أنا لم أصل بعد، لكنني لم أعد في الموضع الذي بدأت منه.

وهذا الجمع بين الاعتراف بالألم ورؤية اللطف هو نضج الروح. أما الإيجابية الزائفة فتطلب منك أن تنكر الليل، والتشاؤم يطلب منك أن تنكر النجوم. والإيمان يعترف بالاثنتين، ثم يعلم أن النجوم أدلّ على الطريق من الظلمة.

ما الذي تخشاه في الليل؟

ربما لا تخاف الليل، بل تخاف فقد السيطرة. في النهار تبدو الأشياء تحت عينك، أما الظلمة فتذكرك بأن قدرتك محدودة. وحين تنام لا تستطيع أن تحرس نفسك، ولا أن تراقب من تحب، ولا أن تتابع حركة العالم.

وهنا يتحول النوم كل ليلة إلى درس في التسليم. تضع جسدك الضعيف، وتنقطع إرادتك عن التدبير ساعات، ويبقى الله يدبر. يحفظ

القلب في نبضه، والنفس في تردده، والكون في مساره، من غير أن تستيقظ لتعينه سبحانه على شيء.

كل صباح تستيقظ فيه شهادة أنك كنت في حفظ الله حين غبت عن نفسك.

فلماذا نظن أن العالم لا يستقيم إلا تحت رقابتنا؟ إن الذي حفظك في نومك قادر على أن يحفظك في يقظتك، والذي دبّر أمورك حين انقطعت عنها قادر على تدبير ما يعجز عنه انتباهك.

إذا اشتد الغاسق فاقترب الفلق

ليس في السورة وعدٌ بأن كل ليل دنيوي سينتهي فوراً كما نشتهي. بعض الأحزان تطول، وبعض الجراح تحتاج زمناً، وبعض المظالم قد يتأخر رفعها إلى يوم القيامة. لكن السورة تمنع الظلمة من أن تكون الحقيقة الأخيرة.

فإن لم ينشق ليلٌ في الدنيا بالصورة التي رجوتها، فهناك فلق الآخرة؛ يوم تنكشف السرائر، ويقوم الناس لرب العالمين، ويُعطى الصابرون أجرهم، وترد الحقوق، ولا يبقى في قلوب أهل الجنة حزنٌ ولا غل.

هذا اليقين لا يُخدّر المظلوم ولا يدعوه إلى الاستسلام، بل يمنحه قوةً كي يقاوم من غير أن ينهار إذا تأخر النصر. يعلم أن جهده لا يضيع، وأن صبره محفوظ، وأن التاريخ ليس المحكمة الأخيرة.

الدنيا قد تُغلق ملفات الظلم بلا عدل، أما الآخرة فتفتح كل ملف أُغلق، وتستدعي كل صوت أُسكت، وتزن كل دمةٍ أهملها الناس.

في جوار رب الفلق

حين تقول: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، فلا تغلقها بلسان مَنْ يرى الظلام وحده. قلها وأنت تتذكر الآية التي سبقتها: ﴿يَرْبِّ الْفَلَقِ﴾.

فالليل لم يأتِ في السورة مستقلاً؛ جاء بعد ذكر ربه. وما أعظم الفرق بين ليلٍ تراه بلا الله، وليلٍ تعرف أنك تمشي فيه في جوار الله. في الأول تصبح كل حركة تهديداً، وفي الثاني يظل الخطر محتملاً، لكن القلب ليس متروكاً.

في الأول يبدو الظلام بلا نهاية، وفي الثاني يحمل اسمه نبوءة زواله؛ فهو ليل، والليل طور.

في الأول يسأل القلب: ماذا لو وقع الشر؟ وفي الثاني يقول: إن وقع فلن يقع خارج علم ربي، ولن أترك فيه وحدي.

استعذ بالله من الغاسق الخارجي حين يدخل، ومن الغاسق الداخلي حين يستولي، ومن ليل الذنب إذا أظلم الضمير، ومن ليل اليأس إذا أغلق باب الرجاء، ومن ليل الفكرة إذا حجبت عنك الحقيقة، ومن ليل الوحدة إذا أوهمك أنك منسي.

ثم تذكر أن الذي أمر الفجر أن ينشق من سواد الأفق قادرٌ أن يأمر في روحك فجرًا.

قد لا تعرف متى يأتي، ولا من أي جهة يظهر، ولا بأي صورة؛
لكنك تعرف ربّه.

وهذه المعرفة وحدها أول الصباح.

الفصل السادس

الشَّرُّ الَّذِي يَعْمَلُ فِي الْخَفَاءِ

تأملات في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾

ليست الشرور كلها صاخبةً معلنة؛ فبعضها لا يرفع راية، ولا يواجه ضحيته وجهاً لوجه، ولا يترك على طريقه أثراً واضحاً. إنه يعمل في الظلال، ويتخذ من الخفاء قوة، ومن جهل الإنسان به مساحةً للتمدد.

وبعد أن استعازت السورة من الغاسق حين يشتد ظلامه، انتقلت إلى شرٍّ يناسب الظلمة في طبيعته:

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.

صورةٌ شديدة الإيحاء: عقدٌ تُربط، وأنفاسٌ خبيثة تُنفث فيها، وقصدٌ للإيذاء يتحرك بعيداً عن عين مَنْ يُراد به الشر. إنها صورة السحر الذي يمارسه أهله بالنفث في العقد، مستعينين بالشياطين، فيقع من أثره ما يأذن الله بوقوعه كوناً وابتلاءً، ولا يستقل شيءٌ منه عن مشيئته سبحانه.

فالقرآن يثبت وجود هذا الشر، لكنه لا يترك قلب المؤمن يدور حوله. لا يأمره أن يتعقب كل ساحر، ولا أن يفسر كل مرضٍ وتعثرٍ واضطراب بأنه سحر، ولا أن يسكن عالماً من الأوهام. إنه يختصر الطريق كله في جهة واحدة:

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

كأن السورة تقول: اعرف الشر بالقدر الذي يدفعك إلى التحصن، ولا تتخذة عالمًا تسكن فيه. فالإفراط في الانشغال بالسحر قد يصنع في النفس من الخوف ما لم يصنعه السحر نفسه، وقد يجعل الإنسان ينسب إليه كل شيء حتى يُعطله عن فهم الأسباب الواقعية ومعالجة أخطائه وأمراضه.

القرآن يثبت الحقيقة، والتوحيد يضبط حجمها.

العقدة رمزُ الانغلاق

العقدة موضعُ كان منبسطاً فالتوى، ومفتوحاً فانغلق، وسهلاً فتعقد. إنها انتقال الشيء من البساطة إلى التشابك، ومن الحرية إلى التقيد. وفي السحر تُعقد الخيوط ويُنفث فيها بقصد الأذى. لكن الصورة، مع بقاء معناها الأصلي، توقظ في النفس معنى أوسع: كم من الأشياء تبدأ واضحةً ثم تمتد إليها يد الشر فتعقدها! علاقةٌ كانت صافيةً فتدخل بينها كلمة، وقلبٌ كان مطمئنًا فتلقى فيه ريبة، وطريقٌ كان مستقيمًا فتلتف حوله الأهواء.

فالشر لا يهدم دائماً بضربة ظاهرة؛ قد يصنع عقدةً صغيرة، ثم يتركها تشتد مع الزمن. وربما كان أخطر ما في العقدة أن بدايتها لا تبدو كبيرة. خيطٌ يلتف مرة، ثم أخرى، حتى يصعب رده إلى حاله الأولى.

وهكذا تتكون أزمات كثيرة في حياة الإنسان: ليست حادثة واحدة ضخمة، بل أشياء صغيرة لم تُحل في وقتها؛ عتابٌ كُتِم، وسوء فهم لم يُصحح، وكلمةٌ جُرحت بها النفس ولم يُعتذر عنها، وظنٌ ترك بلا تثبت. ثم يستيقظ الطرفان يومًا فيجدان بينهما عقدة لا يعرفان أين بدأ طرفها.

النفث؛ الشرُّ الذي لا يحتاج إلى ضجيج

النفث هو إخراج شيءٍ من الريق مع النفس، وهو فعلٌ خفيف في ظاهره، لا يشبه الضرب ولا الصراخ. وفي هذا ملمح عميق: ليس كل أذى كبيرٍ محتاجًا إلى فعلٍ كبير؛ أحيانًا تكفي كلمة هامسة لفتح بابًا من الفتنة.

كم من بيتٍ لم تهدمه حرب، بل نفثةٌ واثٍ قال كلمةً ثم مضى! وكم من صداقةٍ لم تنتهِ بسبب خيانةٍ حقيقية، بل بسبب خبرٍ نُقل بوجهٍ ناقص!

وكم من جماعةٍ تمزقت لأن إنسانًا كان ينفث في عُقد الاختلاف، يزيد كل طرفٍ سوء ظن بالطرف الآخر!

الشرير الذكي لا يصنع الخصومة دائمًا بيده، بل يجعل الآخرين يصنعونها لأنفسهم. يلقي كلمة، ويترك للخيال أن ينسج بقيتها. لا يقول كذبةً كاملة يمكن كشفها، بل يمزج جزءًا من الحقيقة بإحساءٍ خبيث، حتى تبدو الفتنة كأنها استنتاجٌ طبيعي.

وهكذا يعمل النفط المعنوي: صوتٌ خافت، وأثرٌ بعيد.

الكلمة التي تُعقد القلوب

الإنسان يستهين بالكلمات لأنها لا تُرى بعد خروجها، لكنه لا يرى أيضاً موضع سقوطها. قد تقع على قلبٍ مثقل فتزيده انكساراً، أو في نفسٍ شكاكة فتتحول إلى يقينٍ فاسد، أو في مجلسٍ غضب فتشعل ما كان قابلاً للتهدة.

ولذلك فإن من التقوى أن يسأل الإنسان قبل الكلام: هل ستحل كلمتي عقدة أم ستربط عقدة جديدة؟ هل ستجمع قلوبين أم ستزيد المسافة بينهما؟ هل أنقل هذا الخبر طلباً للحق أم طلباً للذة الحكاية؟ ليس كل صحيح يُقال في كل وقت، ولا كل ما يُعرف يُنقل، ولا كل خطأ يحتاج إلى فضيحة. فقد تكون الكلمة في ذاتها صادقة، لكن توقيتها وسياقها وقصدها يجعلها أداة شر.

ومن أخطر النفط أن يختبئ الأذى في ثوب النصيحة. يأتيك إنسانٌ فيقول: إنما أخبرك لأنني أحبك، ثم يضع في قلبك تجاه أخيك سماً لم تكن تحتاج إليه. قد لا يكون ما قاله كذباً كاملاً، لكن الحب الصادق لا يتلذذ بإفساد الصور، ولا ينقل من الكلام إلا ما تدعو إليه مصلحةٌ معتبرة.

فكم من نميمة دخلت البيوت وهي ترتدي ثوب الوفاء!

النفث في عُقد المودة

العلاقات الإنسانية عقودٌ من الثقة، والمودة خيطٌ رقيق يزداد قوةً بالتجارب الصادقة. لكن الوشاية تعرف كيف تبحث عن أضعف نقطة فيه، ثم تنفث.

تبدأ بسؤالٍ يوحي ولا يصرح: ألم تلاحظ تغيره؟ ثم خبر مبتور: سمعت أنه قال شيئاً عنك. ثم تفسير للنيات: هو لم يحبك كما ظننت. وبعد قليلٍ يبدأ المرء في إعادة قراءة الماضي كله على ضوء الريبة الجديدة؛ فتتحول المواقف الجميلة إلى خداع، والصمت إلى كراهية، والتأخر إلى إهمال.

ليس لأن الحقيقة تغيرت، بل لأن النفث غير العدسة.

وهنا تظهر قيمة التثبت. فالخبر الذي يصل إليك عن إنسان تحبه لا ينبغي أن يكون أقوى من معرفتك المباشرة به، ولا أن يمنح ناقله سلطة هدم تاريخٍ كامل. اسأل، واستوضح، وأحسن الظن ما وجدت له وجهًا، ولا تجعل ثالثًا يسكن المسافة بين قلبك وقلب أخيك.

كثيرٌ من العُقد كان يمكن أن تُحل بجملة صادقة: بلغني عنك كذا، وأحببت أن أسمع منك.

لكن الكبرياء يجعل الإنسان يبني محكمةً كاملة في داخله، يكون فيها هو القاضي، والناقل شاهدًا وحيدًا، والغائب متهمًا لا يسمع الحكم ولا يدافع عن نفسه.

السحر بين الإثبات والتهويل

تثبت الآية شرَّ السحر، والسحر ثابتٌ بنصوص الوحي، وقد يقع من أثره ما قدره الله. لكن الإيمان به لا يعني ردَّ كل ما تعذر تفسيره إليه؛ فالأمراض لها أسباب، والاضطرابات النفسية لها أسباب، وفشل العلاقات له أسباب، وسوء القرارات له نتائج.

وقد يُبتلى الإنسان بمرضٍ يحتاج إلى طبيب، فيؤخر العلاج لأنه يبحث عن ساحرٍ متوهم. وقد تكون المشكلة ناشئةً من سلوكٍ خاطئ، فيرفض محاسبة نفسه وينسبها إلى الحسد والسحر. وهكذا تتحول العقيدة الصحيحة، بسبب سوء الفهم، إلى غطاءٍ للهروب من المسؤولية.

والمنهج السليم يجمع بين الرقية الشرعية، والدعاء، والأذكار، وبين الأخذ بالأسباب الطبية والنفسية والعملية المشروعة. فلا تعارض بين أن تقرأ المعوذات وأن تراجع الطبيب، أو أن تستعيذ بالله وأن تفحص الأسباب الظاهرة.

فالذي خلق القرآن هدايةً وشفاءً هو الذي أمر بالسعي، وجعل في الكون سنناً وأسباباً. والتوكل لا يعني أن ننسب كل مجهول إلى الغيب، بل أن نستعين بالله ونحن نبحث عن الحقيقة بوعي.

ولا يجوز للمؤمن أن يذهب إلى السحرة والكهنة بحجة العلاج؛ فالشر لا يُعالج بشر مثله، والباب الذي حرمه الله لا يصير طريق

نجاه. إنما الحفظ في توحيد الله، والرقية المشروعة، والأخذ بالسبب المباح.

الخوف الذي يصنع عقدًا جديدة

قد لا يصل الشر الخارجي إلى الإنسان، لكن خوفه منه يعقد حياته. يسمع عن الحسد، فيخفي كل نعمة، ويشك في كل محب، ويقرأ كل نظرة بوصفها تهديدًا. ويسمع عن السحر، فيفسر به كل اختلاف أو تعب، ويصبح منزله مشحونًا بالريبة.

عندئذ لا يعود الخوف حارسًا، بل يتحول إلى نافثٍ آخر في العقد.

يعقد علاقة الإنسان بأهله؛ لأن كل واحد قد يصير متهمًا.

ويعقد علاقته بجسده؛ لأن كل عارضٍ يصبح نذيرًا.

ويعقد علاقته بالله؛ لأنه يراقب قوة الشر أكثر مما يشهد قوة

الرب.

وسورة الفلق جاءت لتفك هذه العبودية، لا لتغذيها. إن الله لم يقل: فتَّشُوا عن النفاثات، بل قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾. جعل مركز السورة الرب، لا الساحر؛ والنور، لا العقدة؛ والاستعاذة، لا الوسواس.

إذا كان ذكرك للشر يزيدك معرفةً بالله وحسن التجاء إليه، فقد فهِمْتَ السورة. أما إذا جعلك أكثر هلعًا وسوء ظن، فقد استولى الخوف على موضع التوحيد في قلبك.

العقد التي في النفس

في كل نفس عقدٌ لا يراها الناس: تجربةٌ قديمة ما زالت تؤثر في اختيارات الحاضر، وكلمةٌ قاسية صدقتها صاحبها عن نفسه، وخوفٌ من الهجر يدفعه إلى إفساد علاقاته قبل أن يتركه الآخرون.

قد يعيش الإنسان أعوامًا وهو يتصرف من داخل عقدة لم يسمّها. يبالغ في طلب رضا الناس لأنه حُرّم القبول صغيرًا، أو يرفض النصيحة لأن كل تصحيح يوقظ فيه جرح الإهانة، أو يتشبث بالسيطرة لأنه ذاق قديمًا عجزًا لا يريد أن يشعر به مرة أخرى.

هذه العقد ليست السحر المذكور في الآية، ولا ينبغي خلط المعاني، لكنها مما تستدعيه صورة العقدة للتأمل في النفس. والإنسان بحاجة إلى أن يسأل: أي خيطٍ داخلي يشدني كلما أردت التقدم؟ أي ذكرى تنفث في قراراتي القديمة؟ هل أتصرف مع الحاضر كما هو، أم كما أملاه عليّ ماضٍ لم يُشف؟

والشفاء يبدأ غالبًا حين تُرى العقدة ويُعرف أول خيطٍ فيها. ما بقي مبهمًا تحكم فينا من وراء الستار، فإذا سميناه استعدادنا بعض قدرتنا عليه.

ولا حرج في أن يستعين الإنسان، بعد الله، بعالمٍ موثوق في دينه فيما يتعلق بالرقية، أو بمعالجٍ نفسي مؤتمن فيما يتعلق بجراح النفس واضطراباتهما. فطلب العون ليس ضعفًا، بل اعترافٌ حكيم بأن بعض العقد تحتاج إلى يدٍ خبيرة تساعدنا على حلها.

حين ينفث الإنسان في عُقد نفسه

ليس كل نفثٍ آتياً من الآخرين. قد ينفث الإنسان في عقده كلاً ما أعاد الحديث السلبي نفسه: أنا لا أصلح، لن يتغير شيء، الناس كلهم سيئون، لا يمكن أن أحب أو أُحِب.

تتكرر الجملة حتى تتحول إلى عقدة، وتتحول العقدة إلى عدسة، ثم يرى الإنسان أدلةً تؤيدها في كل مكان. فإذا نجح قال: صدفة. وإذا أخفق قال: هذا دليلي. وإذا أحبه أحد ظن أنه سيكتشف قريباً أنه لا يستحق الحب.

إن الأفكار التي نكررها ليست بلا أثر. ولهذا يحرر القرآن اللسان من أن يكون أداةً لليأس. لا يأمرنا بالكذب على أنفسنا أو ادعاء قوةٍ لا نملكها، بل يعلمنا لغةً أصدق: أنا ضعيف، لكن لي رباً قوياً. أخفقت، لكن الفشل حدثٌ لا هويتي. لا أعرف الطريق، لكن رب الفلق يهدي.

شَتان بين اعترافٍ بالضعف يفتح باب الاستعانة، وحكمٍ على النفس يغلق كل الأبواب.

عُقد الذنب والتبرير

الذنب في بدايته فعل، لكنه إذا تكرر وربطته النفس بالتبريرات صار عقدة. كلما أراد الإنسان التوبة وجد حول المعصية شبكةً من الأعذار: الظروف دفعتني، والناس يفعلون مثلاً، وأنا لا أستطيع التغير.

والتسوية نفث في عقدة الذنب؛ كل عذر زائف يشدها أكثر. أما الاستغفار الصادق فيبدأ بفك أول خيط: أنا أخطأت.

هذه الجملة تبدو مؤلمة للكبرياء، لكنها رحمة؛ لأنك ما دمت تنسب الفعل إلى اختيارك تستطيع أن تختار غيره. أما إذا جعلت نفسك ضحية مطلقة للظروف، فقد نزعت عنها القدرة والمسؤولية معاً.

والتوبة ليست أن تكره نفسك، بل أن تكره القيد الذي أبعدنا عن الله. ليست جلدًا للروح، بل تحريرًا لها. والله لا يدعوك إلى الاعتراف ليزالك، وإنما لتدخل عليه من باب الصدق.

عقد المجتمع

وقد تتراكم في المجتمعات عقدٌ يصنعها خطابٌ طويل من التخويف والكرهية. تُكرر أوصافٌ عن فئة أو قبيلة أو جماعة حتى تنفصل صورتها في الوعي عن حقيقتها الإنسانية. ثم يصبح ظلمها سهلاً؛ لأن النفث المتكرر سبق الجريمة، ومهد للضمان أن تقبلها.

كل ظلم جماعي كبير تسبقه غالبًا كلمات: تشويه، وتصنيف، وتجريد للآخر من كرامته، وتحويله إلى خطرٍ مطلق. فإذا استقرت هذه العقدة في الوعي صار الاعتداء دفاعاً، والقسوة بطولة، والصمت حكمة.

ولهذا كانت مقاومة الكلمة الكاذبة جزءاً من مقاومة الظلم. لا تستهن بخطاب يحرض الناس بعضهم على بعض؛ فربما كان نفثاً أولى في عقدةٍ ستشد لاحقاً على أرواح الأبرياء.

والمؤمن لا يسمح للانتماء أن يعمي عدله. يحكم على الأفعال، لا على الأسماء؛ وينصر الحق ولو جاء على يد مخالف، ويرفض الظلم ولو مارسه قريب. فالوحي يفك عُقد العصبية التي تجعل الإنسان يرى الفعل نفسه خيرًا من قومه وشرًا من خصومه.

حلُّ العقد يبدأ بالنور

تُعقد الخيوط في الخفاء، لكنها تُحل حين تظهر. فالشر يحتاج إلى العتمة، أما الإصلاح فيحتاج إلى الصدق. وما أكثر العقد التي تشتد لأن أصحابها يخافون من فتحها: يؤجلون الحديث، ويخفون الألم، ويتظاهرون أن كل شيء بخير، بينما يستمر النفط في الداخل.

الحوار الصادق فلق.

والاعتذار فلق.

والتثبت من الأخبار فلق.

والاعتراف بالخطأ فلق.

والدعاء في جوف العجز فلق.

والأشياء المعقدة لا تُحل بالعنف دائمًا؛ فمن شد العقدة غاضبًا زادها إحكامًا. تحتاج إلى صبرٍ يميز الخيوط، ورحمةٍ تفهم كيف تشكلت، وصدقٍ لا يخشى الحقيقة.

وفي العلاقات، لا يكفي أن تسأل: من المخطئ؟ بل اسأل أحيانًا: كيف وصلنا إلى هنا؟ فقد لا تحل العقدة بإدانة طرفٍ وحده، وإنما بفهم المسار الذي نسجها.

لا تعالج النفط بنفثٍ مثله

إذا أودى الإنسان بكلمة، فقد يميل إلى ردها بأشد منها. وإذا نُقل عنه كلام، نقل عن غيره. وإذا شُوّهت صورته، شرع في تشويه من ظلمه. وهكذا يظن أنه يدافع عن نفسه، بينما هو يوسّع دائرة النفط.

ليس معنى الأخلاق أن يترك المرء حقه أو يسكت عن الافتراء، بل أن يردَّ الحق بالحق، من غير أن يستعير أدوات الباطل. يوضح الحقيقة، ويدفع الظلم، ويضع الحدود، لكنه لا يكذب ليواجه كذبًا، ولا يظلم ليعاقب ظلمًا.

فالشر لا ينتصر فقط حين يؤذيك، بل حين يقنعك بأن النجاة لا تكون إلا بأن تصبح مثله.

أما المؤمن فيستعيز بالله من الشر ومن عدواه الأخلاقية؛ من أن يتسلل أسلوب المؤذي إلى قلبه، فيحمل ملامحه وهو يزعم مقاومته.

رب الفلق ورب العقدة

مهما خفي النفط واشتدت العقدة، فكل ذلك داخلٌ تحت علم الله وقدرته. لا يحتاج رب الفلق إلى أن يرى أثرًا كما نحتاج نحن؛ فهو

يعلم القصد قبل أن يتحول إلى فعل، ويعلم موضع العقدة وأول خيطٍ فيها وآخره.

والذي يفلق الحبة والنواة، ويشق الصبح من الليل، قادرٌ أن يفلق العقدة المغلقة عن مخرج. لا يعجزه سحر، ولا يسبقه كيد، ولا يستعصي عليه ما اشتبك في النفس والحياة.

وهنا يستريح القلب من الحاجة إلى فهم كل التفاصيل. قد لا تعرف مَنْ أراد بك الشر، ولا كيف بدأ، ولا أين انتهى. وقد لا يكون ما تخشاه موجودًا أصلًا. فلا تجعل نجاتك متوقفةً على كشف المجهول؛ علقها بمعرفة الله به.

استعد، وتحصّن بالأذكار المشروعة، وخذ بالأسباب، وتنبّت من أوهامك، ثم عش. لا تمنح الشر أعوامك بحجة الحذر منه.

من العقدة إلى الفلق

هذه الآية لا تريد أن تترك في مخيلتك صورة الخيوط المعقودة، بل أن تردّها إلى الاسم الذي افتتحت به السورة: ﴿رَبِّ الْفَلَقِ﴾. فبين العقدة والفلق مقابلةٌ عجيبة: العقدة إغلاق، والفلق انشقاق؛ العقدة حبس، والفلق انطلاق؛ العقدة خفاء، والفلق ظهور.

وكان السورة تقول: مهما عمل أهل الشر في الإغلاق، فإنك تستعيز برب الانفتاح. ومهما اجتهدوا في الخفاء، فإنك تلجأ إلى مَنْ يعلم السر وأخفى. ومهما نفثوا في العُقد، فإن أمر الله إذا جاء فكَّ ما شدّه وأبطل ما صنعوه.

فلا تجعل العقدة أكبر من الفلق في قلبك.

ولا تجعل معرفتك بالسحر أوسع من معرفتك بالله.

ولا تجعل خوفك من النفط أشد من ثقتك بالملجأ.

وقل بقلبٍ حاضر:

يا رب، أعذني من كل شرٍ يدبّر في خفاء، ومن كل كلمة تُقال
لهدم مودّة، ومن كل وهمٍ يعقد قلبي، ومن كل خوفٍ يمنعني من
الحياة.

وأعذني أن أنفث في عقد الآخرين بكلمة، أو ظن، أو نميمة، أو
تحريض.

وحلّ بلطفك ما اشتبك في نفسي، وما انعقد في علاقتي، وما خفي
عليّ سببه.

فإن العُقد من صنيع المخلوقين، وأنت ربُّ الفلق.

الفصل السابع

العُقْدُ الَّتِي تَصْنَعُهَا الْكَلِمَاتُ

حين تتحول اللغة من جسرٍ للمودة إلى أداةٍ للهدم

ليست كل العُقْد خيوطاً تُربط باليد؛ ففي حياة الإنسان عُقْدٌ لا تُرى، تصنعها كلماتٌ عابرة، أو ظنونٌ تُنفث في القلوب، أو أخبارٌ تمشي بين الناس حتى لا يعود أحدٌ يعرف أين بدأت، ولا مَنْ أضاف إليها، ولا كيف انتهت إلى تلك الصورة الثقيلة.

الكلمة لا تملك جسداً، لكنها تستطيع أن تُثقل قلباً. ولا تملك يدًا، لكنها قد تهدم بيتًا أو تقطع رحمًا أو تغلق بين صديقين طريق الرجوع. تخرج في لحظة، ثم تمضي، بينما يبقى أثرها في نفس من سمعها أيامًا أو أعوامًا.

وإذا كانت الآية الكريمة تتحدث في أصل معناها عن شر السواحر النافثات في العقد، فإن صورة النفط والعقد توقظ المتدبر إلى ما يشبهها من الشرور المعنوية؛ إلى كل همسٍ خفي يُلقى في موضع المودة فيحوّل الصفاء إلى ريبة، والقرب إلى حذر، والثقة إلى علاقةٍ مشدودة لا تستريح.

إننا نعيش داخل الكلمات أكثر مما نظن؛ نبني بها صورتنا عن أنفسنا، ونفهم من خلالها الآخرين، ونحمل بها الذكريات. فإذا صلحت اللغة صلحت مساحات واسعة من الحياة، وإذا فسد اللسان امتد فساده إلى القلوب.

الكلمة لا تنتهي عند فم قائلها

يظن بعض الناس أن مسؤوليته عن الكلمة تنتهي حين ينطقها، كأنها بعد خروجها تصبح شأنًا يخص السامع وحده. يقول: لم أقصد، أو كنت أمزح، أو هو حساسٌ أكثر مما ينبغي. لكنه لا يسأل: لماذا منحت لساني حقَّ الدخول إلى موضعٍ ضعيفٍ في نفس أخي؟

ليس القصد وحده هو الميزان، وإن كان له أثره؛ فالحكمة تقتضي أن ننظر أيضًا في نتيجة القول وسياقه. قد لا يقصد الإنسان إشعال النار، لكنه إذا ألقى شرارةً في موضعٍ يعلم جفافه لم تبرئه دعوى المزاح.

والكلمة أخطر من كثيرٍ من الأفعال؛ لأنها قابلةٌ للتناسخ. يسمعها واحد فينقلها إلى آخر، ويضيف كل ناقلٍ إليها من فهمه ونبرته وظنونه، حتى تعود إلى صاحبها الأول مخلوقًا جديدًا لا يكاد يعرفه.

لهذا كان التثبت عبادةً أخلاقية. أن تتوقف قبل نقل الخبر ليس ضعفًا في المشاركة، بل قوةٌ على مقاومة لذة الحكاية. فالإنسان يحب أن يمتلك معلومةً لا يمتلكها الآخرون؛ يشعر للحظة أنه مركز المجلس. وربما ضحى بسمعة أخيه كي يشتري هذا الشعور العابر.

وما أرخص اللذة إذا كان ثمنها قلبًا أو عرضًا أو مودة!

حين يُنقل الكلام بلا روحه

قد تكون العبارة صحيحةً من حيث ألفاظها، لكنها تُنتزع من سياقها فتغدو كذبًا في دلالتها. كلمة قيلت في غضب ثم ندم قائلها، أو رأيٌّ

قديم رجع عنه صاحبه، أو جملةً أُحيّطت بما يشرحها، فيُنقل منها الجزء الذي يخدم غرض الناقل.

وهنا يظهر نوعٌ دقيق من عدم الأمانة: أن تقول ما قيل، لكنك لا تنقله كما أريد. تحتفظ بالحروف وتخون المعنى.

والأمانة في نقل الكلام ليست تسجيل الأصوات وحدها؛ بل حفظ السياق والنبرة والقصد، وألاً تستخدم كلام الناس في غير الموضع الذي قالوه فيه. فرب عبارة صادقة في سياقٍ مخصوص تصبح ظلمًا إذا خرجت منه.

ومن أشد صور النفط أن تجمع من كلام إنسان قطعًا متناثرة، ثم ترتبها لتصنع له وجهًا لم يكن له. لا تكذب في كل جملة، لكنك تكذب بالصورة الكلية. وهذا اللون من التضليل أخطر من الكذب الصريح؛ لأنه يستتر وراء أجزاء من الحقيقة.

والحق لا يحتاج إلى هذا المكر، ومن أراد العدل لم ينتق من الوقائع ما يرضي هواه.

سؤالٌ صغير يفتح باب الشك

ليس النفط دائمًا خبرًا مباشرًا؛ قد يكون سؤالًا صيغ ليزرع الاحتمال:

هل أنت واثقٌ منه؟

ألم تلاحظ كيف تغيّر؟

هل تظن أنه يفرح لنجاحك حقًا؟

يترك النافث السؤال معلقًا، لكنه يكون قد وضع في القلب بذرة تواصل العمل بعد غيابه. ويشرع السامع في التفتيش داخل الذاكرة، فيقرأ كل موقفٍ قديم بطريقة جديدة. الصمت الذي كان هدوءًا يصير إهمالًا، والتأخر الذي كان عذرًا يصير استهانة، والنصيحة التي كانت حبًا تصير حسدًا.

إن السؤال قد يكون بحثًا صادقًا عن الحقيقة، وقد يكون طريقةً للاتهام دون تحمل مسؤوليته. والفرق بينهما يظهر في نية السائل وما يقدمه من بينة وما يريده من النتيجة.

بعض الناس لا يقول لك: فلانٌ سيئ؛ بل يدفعك إلى أن تقولها بنفسك، ثم يتظاهر بأنه لم يحكم عليه. هكذا يحفظ صورته أمامك، ويهدم صورة غيره في قلبك.

لا تمنح الناقل قلبك بلا بينة

كما أن على المتكلم مسؤولية، فعلى السامع مسؤولية أيضًا. فالكلمة المؤذية تحتاج إلى أذنٍ تستقبلها كي تواصل حياتها. ولو أغلقت أبواب السماع أمام النميمة، لمات كثيرٌ من الشر قبل أن يبلغ موضعه.

قد لا تستطيع منع الناس من الكلام، لكنك تستطيع ألا تجعل قلبك مستودعًا لكل ما يُقال. اسأل الناقل: هل تحققت؟ وما المصلحة في

إخباري؟ وهل ترضى أن أذكر اسمك حين أستوضح الأمر من صاحبه؟

عند هذا السؤال يتراجع كثيرٌ من النافثين؛ لأنهم يريدون أثر الكلام من غير أن يتحملوا مسؤوليته.

والثبّت ليس دفاعاً أعمى عن المخطئ، بل هو عدل. قد يكون الخبر صحيحاً، لكن الحق لا يخشى الفحص. أما الباطل فيعيش على السرعة؛ يريد منك أن تغضب قبل أن تسأل، وأن تحكم قبل أن تسمع الطرف الآخر.

فكلما كان الخبر أشد أثراً في عرض إنسان أو علاقة، كان واجب الثبّت أعظم. لا تجعل سرعة رسائلك أسرع من ضميرك.

عُقْدَةُ تَبْدَأُ مِنْ سُوءِ فَهْمٍ

ليست المشكلات كلها نتيجة خبث؛ فكثير منها يبدأ باختلافٍ في اللغة أو التوقع. يقول أحدهم عبارةً يريد بها معنى، ويسمعها الآخر من خلال جرحٍ قديم، فتصل إليه بمعنى مختلف. ثم يرد على ما فهم، فيفهم الأول الرد هجوماً، فتبدأ العقدة.

وهنا نحتاج إلى الرحمة في تفسير الكلمات. فالناس لا يتحدثون دائماً بدقة، وقد يخطئون التعبير عن مقاصد حسنة. وليس من العدل أن نحمل عبارةً محتملة أفسى معنى، ثم نبني عليها حكماً كاملاً.

حسن الظن ليس سذاجة، بل إعطاء الكلام وجهه الأحسن ما دام يحتمله، وخاصةً ممن عُرِفَتْ مودته واستقامته. والتاريخ الطويل من الصدق ينبغي ألا يُهْزَم أمام لفظةٍ ملتبسة.

وما أجمل أن يقول الإنسان: لعنني لم أفهمك، فهل توضح لي؟ إنها جملة صغيرة، لكنها تفك عُقْدًا كان الكبرياء سيشدها.

فبعض الخصومات لم يصنعها اختلاف القلوب، بل سوء الترجمة بينها.

العتاب الذي يتأخر

للألم إذا كُتِمَ حياةٌ داخلية؛ لا يبقى في حجمه الأول، بل يتغذى على الصمت والتفسير. وكلما تأخر العتاب، أضاف الخيال إلى الواقعة وقائع، حتى يأتي يومٌ لا يتحدث فيه الإنسان عن خطأ واحد، بل عن تاريخٍ كامل أعاد بناءه تحت تأثير الجرح.

العتاب المبكر الصادق يحمي المودة. لا يكون هجومًا ولا محاكمة، بل كشفًا للقلب: ألمتني هذه الكلمة، وفهمت موقفك على هذا الوجه، وأريد أن أعرف ما قصدت.

أما العتاب الذي يُخزن طويلاً فقد يخرج في لحظة غضب على هيئة انفجار، فيصيب العلاقة بأكثر مما أصابها الخطأ الأول. وعندها ينسى الطرفان أصل المشكلة، ويصبح كل واحدٍ منشغلًا بالدفاع عن نفسه.

لكن ليس كل عتابٍ حكمة؛ فقد يتحول إلى مراقبة مرهقة ومحاسبةٍ على كل صغيرة. المودة تحتاج إلى مساحةٍ من التغافل كما تحتاج إلى الصراحة. بعض الكلمات تُعالج بالحوار، وبعضها يموت إذا تجاوزناه بكرم.

والحكمة أن تعرف ما يحتاج إلى كشف، وما يليق به العفو الصامت.

التغافل ليس غفلة

التغافل خلقٌ من رأى الخطأ ولم يجعل كل خطأ قضية. إنه قدرةٌ على حماية العلاقة من الاستنزاف، وفهمٌ لطبيعة البشر الذين لا يخلو قربهم من نقص.

أما الغفلة فهي ألا ترى ما ينبغي أن تراه، أو أن تتجاهل أذى متكرراً حتى يهدمك. وبينهما فرق: التغافل اختيار القوي الذي يزن الأمور، والغفلة عجزٌ عن وضع الحدود.

لا ينبغي للإنسان أن يفتح محكمةً لكل لفظة، كما لا ينبغي أن يسمح للكلمات الجارحة أن تتحول إلى نمطٍ دائم. فالعفو عن الزلة رحمة، والسكوت عن الإهانة المستمرة قد يكون مشاركةً في ترسيخها.

ومن فقه العلاقات أن يجمع الإنسان بين قلبٍ يعفو، ولسانٍ يوضح، وحدودٍ تحمي الكرامة.

الكلمة حين ترتدي ثوب المزاح

كم من أذى مرّ من باب المزاح! يُسخر من الهيئة، أو الأصل، أو الفقر، أو الضعف، ثم يُطالب المجروح أن يضحك حتى لا يُتهم بالحساسية.

لكن الضحك العام لا يحوّل الإهانة إلى براءة. قد يبتسم الإنسان في المجلس حياءً، ثم يعود إلى بيته يحمل العبارة وحده. والساخر يستمتع بثوانٍ من انتباه الناس، بينما يدفع الآخر ثمنها من ثقته بنفسه.

المزاح الجميل يفتح القلب، لا يجرحه؛ ويصنع مشاركة، لا يجعل إنساناً مادةً لبهجة الآخرين. وإذا أخبرك أحدٌ أن مزاحك آلمه، فلا تدافع عن نيتك قبل أن تصغي إلى أثر فعلك. قد تكون نيتك بريئة، لكن الاعتذار لا يتهمها؛ إنه يكرم القلب الذي تأذى.

أن تقول: لم أقصد، ولكنني آسف لأن كلمتي جرحتك، أرفع أخلاقاً من أن تقول: المشكلة فيك لأنك لم تفهم المزاح.

الكلمات التي تُعقد صورة الإنسان عن نفسه

تبدأ صورة الطفل عن نفسه غالباً من أعين من حوله وكلماتهم. فإذا تكرر عليه: أنت فاشل، أنت ثقيل، لن تصلح لشيء؛ لم يسمع أوصافاً عابرة، بل تلقى تعريفاً قد يسكنه طويلاً.

يكبر الجسد، وتبقى الكلمات في الداخل بصوت أصحابها. وكلما حاول خوض تجربة جديدة نهض ذلك الصوت يقول له: لا تحاول؛ نحن نعرف حقيقتك.

وقد لا يدرك الأب أو المعلم أن جملةً قالها في غضب صارت عقدةً في روح إنسان. لذلك فالكلمة التربوية مسؤولية؛ ينبغي أن تصف الفعل الخاطئ دون أن تحطم هوية صاحبه. قل: أخطأت، ولا تقل: أنت خطأ. قل: هذا العمل ضعيف، ولا تغلق على الطفل باب القدرة على التحسن.

الإنسان يحتاج إلى من يبصر إمكانه من وراء عثرته. والنقد الذي لا يترك للمخطئ طريقاً للعودة ليس إصلاحاً، بل حكمٌ بالإعدام النفسي.

وكم من كلمة ثقةٍ صنعت في إنسانٍ فلماً! قال له أحدهم في لحظة انكسار: أرى فيك خيراً، فظل يستند إليها حتى صار ذلك الخير حقيقة ظاهرة.

خطاب الإنسان مع نفسه

إذا كان كلام الآخرين يستطيع أن يعقد النفس، فإن حديث الإنسان مع ذاته قد يكون أشد أثراً؛ لأنه يتكرر في الداخل بلا انقطاع.

ثمة فرق بين محاسبة النفس وإهانتها. المحاسبة تقول: قصرت، فكيف أصلح؟ أما الإهانة فتقول: أنت لا تستحق الخير. الأولى تفتح عملاً، والثانية تغلق الطريق.

وبعض الناس يظن القسوة على نفسه تواضعاً، فيرفض كل نجاح، ويقلل من كل فضيلة، ويستحضر أخطائه حتى يصبح عاجزاً عن رؤية رحمة الله فيه. لكنه لا يزداد بهذا إخلاصاً، بل قد يدخل في دائرة من العجز واليأس.

التواضع أن تعرف أن فضلك من الله، لا أن تنكر الفضل. والندم أن تبغض الذنب، لا أن تبغض النفس التي دعاها الله إلى التوبة.

خاطب نفسك بصدقٍ ورحمة: أنت ناقص، لكن باب الكمال الإنساني مفتوح بالمجاهدة. أنت تخطئ، لكن ربك غفور. لديك جراح، لكنها ليست حكماً نهائياً على مستقبلك.

فالكلمة التي تكررهما في داخلك إما أن تكون نفثاً في عقدتك، وإما أن تكون يدًا تفكها.

العقد بين الأزواج

البيت من أكثر الأماكن حاجةً إلى نظافة الكلمات؛ لأن الإنسان يعيش فيه بلا أقنعة كثيرة، ويعرف كل طرف مواضع ضعف الآخر. وهذه المعرفة يمكن أن تكون باب رحمة، ويمكن أن تتحول عند الخصومة إلى سلاح.

من الخيانة الأخلاقية أن يمنحك إنسانُ سره في ساعة أمان، ثم تستعمله ضده في ساعة غضب. فالسر الذي قيل لك داخل المودة يظل أمانةً حتى عند النزاع.

وكثيرٌ من العُقد الزوجية لا تبدأ من المشكلة نفسها، بل من طريقة الحديث عنها: التعميم، واستحضار الماضي كله، واتهام النيات، والمقارنة بالآخرين. تتحول عبارة «هذا الموقف ألّمني» إلى «أنت لا تهتم أبدًا»، فيضطر الطرف الآخر إلى الدفاع عن شخصيته كلها بدلًا من معالجة موقف واحد.

كلما كان الكلام محددًا كان أقرب إلى الحل، وكلما صار اتهامًا شاملاً صار عقدة.

والمودة لا تعني غياب الخلاف، بل وجود أخلاقٍ تحمي الطرفين في داخله: لا إهانة، ولا فضح، ولا تهديدٌ دائم بالرحيل، ولا استدعاء للجروح القديمة كلما ظهر جرح جديد.

العُقد في زمن الرسائل السريعة

من أشد ما ضاعف أثر الكلمات في زماننا أن اللسان لم يعد يحتاج إلى مجلس؛ تكفي لمسةٌ لتمضي العبارة إلى مئات أو آلاف. وقد ينشر المرء خبرًا في لحظة انفعال، ثم يعجز عن جمع أثره ولو حذفه بعد دقائق.

في اللقاء المباشر نرى الوجه ونسمع النبذة، أما الرسائل المكتوبة فتفقد كثيرًا من القرائن. قد تُفهم الدعابة احتقارًا، والاختصار جفاءً،

والتأخر تجاهلاً. ولذلك تحتاج الكلمات الرقمية إلى مزيد من التؤدة، لا إلى قدر أقل منها.

لا تكتب وأنت في ذروة الغضب ما ستحتاج غداً إلى أعوام لإصلاحه.

ولا تجعل شاشةً باردة تمنحك جرأةً على قول ما تستحي أن تقوله في وجه إنسان.

ولا تشارك اتهاماً لمجرد أنه يوافق موقفك؛ فموافقة الهوى ليست دليلاً.

كل إعادة نشر شهادةً أخلاقية، وكل كلمة محفوظة في كتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة.

الصمت الذي يفكُّ العقد

كما تكون الكلمة علاجاً، قد يكون الصمت علاجاً أيضاً. ليس كل استفزازٍ يحتاج إلى جواب، ولا كل متهم يستحق أن تُهدر روحك في إقناعه. بعض الكلمات تموت إذا لم تجد رداً تتغذى عليه.

والصمت الحكيم ليس عجزاً؛ إنه رفضٌ لأن تدخل المعركة التي اختارها لك الآخر. قد يريد أن يسحبك إلى مستوى من الخصومة يفقدك اتزانك، فتكون قوتك في ألا تمنحه ذلك.

لكن الصمت ليس فضيلةً مطلقة. قد يكون خيانةً حين يجب بيان الحق، أو تخلياً عن مظلوم، أو قبولاً بإهانةٍ مستمرة. والحكمة ليست

في الكلام أو السكوت وحدهما، بل في معرفة أيهما أقرب إلى رضا الله وإصلاح الواقع.

تكلم حين يكون الكلام نورًا، واصمت حين يصير الكلام نفثًا جديدًا.

الاعتذار؛ يدٌ رفيقة على العقدة

الاعتذار من أقوى الكلمات وأثقلها على النفس. فالكبرياء يصور الاعتراف بالخطأ هزيمة، مع أنه في حقيقته إنقاذ لما بقي من المودة.

الاعتذار الصادق لا يقول: أنا آسف، لكنك أنت السبب. ولا يطلب من المجروح أن ينسى فورًا كي يستريح المعتذر. إنه يعترف بالفعل وأثره، ثم يمنح الطرف الآخر حقه في الوقت والتعافي.

وما أجمل أن يقول الإنسان: أخطأت في حقك، ولا أملك تغيير ما وقع، لكنني أملك ألا أبرره، وأن أصلح ما أستطيع.

هذه الكلمات لا تمحو الجرح دائمًا، لكنها تمنع زيادة سمه. وقد لا تعيد العلاقة إلى صورتها الأولى، لكنها تعيد إلى الإنسان شرف الصدق.

وعلى الجانب الآخر، العفو لا يعني دائمًا عودة القرب كما كان. تستطيع أن تصفح عن إنسان، وتضع في الوقت نفسه حدودًا تحفظك. فالغفران طهارة قلب، والثقة بناءٌ يحتاج إلى أدلة جديدة.

الكلمة التي تصنع فلقًا

إذا كانت بعض الكلمات نفثًا في العقد، فإن كلمات أخرى فلقٌ يشقها. كلمة إنصاف في مجلس ظلم، وشهادة حق حين يصمت الناس، واعتذار يفتح باب الرجوع، ودعاء يسمعه مكسورٌ فيشعر أنه ليس وحده.

ربما لا تستطيع حل مشكلة إنسان، لكنك تستطيع ألا تزيدها، وأن تمنحه كلمةً تخفف وحدته. وليس المطلوب خطابًا بليغًا؛ قد تكفي جملة صادقة: أنا أصدق أملك. أنا هنا. لن أتركك وحدك في هذا الطريق.

الكلمة الرحيمة لا تدّعي امتلاك الحل، لكنها تضع مصباحًا عند حافة الجرح.

وقد ينسى الإنسان ما قدمت له من مال، لكنه لا ينسى كلمةً قلنتها حين كانت نفسه على وشك السقوط. لأن الكلمات في لحظات الانكسار لا تدخل الأذن وحدها؛ إنها تدخل بنية الروح.

طهارة اللسان من طهارة القلب

اللسان لا يبتكر كل شره من فراغ؛ إنه يسكب غالبًا ما امتلأ به القلب. فإذا كثر في الكلام الانتقاص، فثمة كبرٌ أو حسد يحتاج إلى علاج. وإذا تلذذ المرء بنقل الفضائح، فهناك قسوةٌ أو فراغ داخلي يطلب أن يتغذى من سقوط الآخرين.

لذلك لا يكفي ضبط اللسان خارجيًا، وإن كان واجبًا؛ بل ينبغي تطهير المنبع. فالذي امتلأ قلبه رحمةً قد يخطئ التعبير، لكنه يسرع إلى الاعتذار. والذي امتلأ حسدًا قد يصمت، لكن صمته ينتظر فرصة للكلام.

ابدأ من الداخل: لماذا يسعدني أن يُنتقص فلان؟ لماذا أشعر بالقوة حين أضعف غيري؟ لماذا أحتاج إلى أسرار الناس كي أكون مهمًا في المجالس؟

هذه الأسئلة مؤلمة، لكنها فلقٌ في ظلمة النفس.

استعادة اللسان والقلب

حين تقرأ: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، فاستعذ بالله من كل كلمة خفية تُراد بها المودة سوءًا، ومن كل خبر يُنقل ليوَقظ العداوة، ومن كل اتهام يسبق الدليل.

واستعذ به أيضًا أن يجعل لسانك نافثًا في عُقد الآخرين.

اسأله أن يطهر كلامك من لذة التفوق، ومن شهوة الظهور، ومن قسوة المزاح، ومن ظلم الخصومة.

اسأله إذا تكلمت أن يجعل كلمتك جسرًا لا جدارًا، ونورًا لا دخانًا، ويدًا تحلّ العقدة لا نفثةً تشدها.

فكم من عقدةٍ صنعها حرف، وكم من فلقٍ بدأ بحرف.

واللسان نفسه الذي يستطيع أن يهدم قلبًا يستطيع أن يقول:

أخطأت.

سامحني.

أحسنّت.

أنا معك.

ثم يستطيع، قبل ذلك كله وبعده، أن يقول:

﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

الفصل الثامن

الْحَسَدُ؛ الْحَرِيقُ الصَّامِتُ

تأملات في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

تصل السورة في خاتمتها إلى شرِّ لا يسكن ظلمة الليل، ولا يختبئ في خيطٍ معقود، بل يتخذ من قلب الإنسان موطنًا:

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

الحسد شرٌّ عجيب؛ لأن صاحبه قد لا يكون قد فقد شيئاً من ملكه، وإنما آلمه أن يرى النعمة في يد غيره. لم يسرق المحسود ماله، ولم ينتزع مكانه، ولم يحرمه حقاً؛ كل ما فعله أنه كان موضع فضلٍ من الله، فصار فضلُ الله جرحاً في نفسٍ لم تتسع لقسمته.

إن الجائع يتألم لأنه لا يملك الطعام، والمريض يتألم لأنه فقد العافية، أما الحاسد فقد يكون صحيحاً غنياً ذا نعمٍ كثيرة، ثم يرى فضلاً عند غيره فينسى كل ما عنده. كأن نعمة الآخر لم تضاف خيراً إلى العالم، بل أخذت من وجوده هو.

وهنا تظهر مأساة الحسد: إنه لا يحرم صاحبه من النعمة الجديدة فحسب، بل يحجبه عن نعمه القديمة. يمتلئ بالاعتراض على ما مُنح غيره، فيفقد القدرة على شكر ما مُنح هو.

أول الحسد نظرةً إلى القسمة

الحسد في عمقه خللٌ في النظر إلى عطاء الله. فالحاسد لا يقف عند حدود الإنسان الذي أمامه، بل يعترض في باطنه على القسمة نفسها: لماذا أُعطي هذا؟ ولماذا لم أُعطَ مثله؟ وكأنه يرى أن خزائن الله محدودة، وأن ما ناله الآخر اقتُطع من نصيبه.

لكن فضل الله ليس قطعةً صغيرة يتنازعها الناس. لا تنقص خزائنه بما أُعطي غيرك، ولا يحول إكرامه لعبدٍ دون إكرامك بصورةٍ أخرى. والاختلاف في الأرزاق والمواهب والأقدار جزءٌ من حكمة الابتلاء؛ ليُختبر الغني في شكره، والفقير في صبره، والقوي في عدله، والضعيف في استعانتِهِ، ويُختبر الجميع في نظرهم إلى فضل الله على بعضهم.

إن الحسد نسيانٌ لسعة الخزائن، والغبطة إيمانٌ بها. الحاسد يقول في باطنه: ليت هذه النعمة تزول عنه. أما صاحب القلب السليم فيقول: اللهم بارك له، وارزقني من فضلك.

الفرق بينهما أن الأول يريد إغلاق الباب بعد خروج النعمة لغيره، والثاني يعلم أن الباب الذي خرجت منه لا يزال مفتوحًا.

لماذا قال: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؟

لم تقل الآية: «ومن شر حاسد» فحسب، بل قيّدت الشر بقولها: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ أي حين يتحرك الحسد ويظهر أثره في قولٍ أو فعلٍ أو كيدٍ.

فقد تعبر بالقلب خاطرةً مقارنةً أو ضيق، ثم يكرهها صاحبها ويجاهدها، ولا يتمنى زوال النعمة. والإنسان لا يملك دائماً الخاطر الأول، لكنه يملك ما يفعله به بعد ذلك: أيستضيفه ويغذيه، أم يستعيز بالله ويدفعه بالدعاء والرضا؟

وهذا من عدل الوحي ورحمته؛ فهو لا يحوّل الخواطر العابرة إلى هويةٍ نهائية. إنما الخطر أن يتحول الإحساس إلى موقف، والموقف إلى سلوك، والسلوك إلى مشروع أذى.

يبدأ الحسد انقباضاً صغيراً حين يُذكر نجاح أحدهم، ثم يبحث له صاحبه عن عيبٍ ليخفف ضيقه. فإذا لم يجد اخترع تفسيراً: لم ينجح بكفاءته، وإنما بال حظ أو المحاباة. ثم لا يلبث أن ينشر ذلك حتى تهتز صورة المحسود في عيون الناس.

هكذا يخرج الحسد من القلب في ثوب طلب العدالة، وهو يريد في حقيقته تسكين الألم من تفوق الآخر.

الحاسد يتألم قبل المحسود

في كل شرٍّ عقوبةٌ داخلية تصيب صاحبه قبل العقوبة الخارجية، ولعل الحسد من أوضحها. فالحاسد مربوطٌ بما يكره: كلما زادت

نعمة المحسود ازداد هو عذاباً، وكلما سمع مدحه انقبض، وكلما رأى نجاحه شعر بفقدٍ جديد.

المحسود قد ينام ولا يعلم مَنْ يحسده، أما الحاسد فيبيت مشغولاً به. يراقب خطواته، ويتتبع أخباره، ويقارن، ويعيد الحساب. وهكذا يتحول الإنسان الذي يحسده إلى مركزٍ لحياته من حيث لا يشعر.

إنه يريد أن ينقصه، لكنه يمنحه أكثر أوقاته وأفكاره.

وأي عبوديةٍ أشد من أن يتوقف صفاؤك على تعثر إنسانٍ آخر؟

الحسد سجنٌ بينيه صاحبه في قلبه، ثم يسلم مفتاحه لمن يحسده. فإذا فرح الآخر حزن، وإذا تعثر استراح. لم يعد يعيش حياته، بل يعيش ردّاً فعلٍ على حياةٍ سواه.

والقلب لا يتحرر حتى يرد المفتاح إلى الله؛ فيعلم أن له مساره الخاص، وابتلاءه الخاص، ونصيبه الذي لن يأخذه غيره.

المقارنة؛ الباب الصغير إلى الحسد

لا يولد الحسد دائماً في صورة كراهيةٍ صريحة، بل يبدأ بالمقارنة المستمرة. ينظر الإنسان إلى ما عند غيره، ثم يقيس به قيمته. فإذا تفوق الآخر في مجالٍ شعر أنه نقص هو، كأن العالم لا يتسع إلا لواحد.

لكن المقارنة ظالمة؛ لأنك تقارن ظاهر حياة غيرك بباطن حياتك، وتضع موهبته أمام نقصك، وتنسى ما أعطاك الله مما قد لا يملكه.

تري الثمرة ولا ترى رحلة التعب، وتري اللقطة المضيئة ولا ترى ما وراءها من أثمان.

وفي عصر العرض المستمر، صارت حياة الناس تدخل علينا في صورٍ منتقاة: نجاح، وجمال، وسفر، ومكاسب. لا يعرض أحدٌ غالباً قلقه الكامل أو لحظات ضعفه، فيقارن المشاهد حياته اليومية المعقدة بواجهة مصقولة من حياة الآخرين.

ومع تكرار المقارنة يفقد الإنسان صلته بنعمته؛ لا يسأل: كيف أنمي ما أعطاني الله؟ بل: لماذا لست مثله؟ وهكذا يترك الحقل الذي كُف بزراعته، ويقف عند سور جاره يعدُّ ثماره.

لكلِّ إنسانٍ رزقه وامتحانه

ليست النعمة دليلاً مطلقاً على الرضا، ولا الحرمان الظاهر دليلاً على الهوان. قد يكون العطاء اختباراً أشد من المنع، وقد يخفي النجاح مسؤولياتٍ وأثقالاً لا يراها الحاسد.

نحن نحسد الناس على ظاهر النعمة، ولا نعرف باطن امتحانها. نحسد صاحب المال ولا نعرف خوفه، وصاحب الشهرة ولا نعرف وحدته، وصاحب المكانة ولا نعرف كم من حريته فقد. وربما لو كشف الله لنا المشهد كله لحمدناه على الموضع الذي أقامنا فيه.

وهذا لا يعني أن كل صاحب نعمةٍ تعيس، وإنما يعني أن رؤيتنا ناقصة، وأن الحكم على الحياة من زاويةٍ واحدةٍ ضربٌ من الوهم.

لكل عبدٍ ملفه الخاص مع الله: نعمٌ تناسب رسالته، وابتلاءات تهذب قلبه، وأبوابٌ تُفتح له، وأخرى تُغلق رحمةً أو تربيةً. وحين يقارن الإنسان نفسه بغيره يعترض على قصةٍ لم يقرأ منها إلا صفحة.

الرضا لا يعني ألا تطمح، بل أن تسعى من غير خصومةٍ مع قدر الله. تطلب المزيد، لكنك لا تحتقر الموجود. تنافس في الخير، لكنك لا تتمنى سقوط السابقين.

الحسد بين الأقربين

قد يأتي الحسد من بعيد، لكنه يكون أشد إيلامًا حين يأتي من قريب؛ لأن النفس تتوقع من القرب مشاركة الفرح. والغريب إذا ضاق بنعمتك آذاك، أما القريب فإذا ضاق بها أضاف إلى الأذى خيبة المودة.

ولعل الحسد يكثر بين المتشابهين والمتقاربين؛ بين إخوة، أو زملاء، أو أبناءٍ مجالٍ واحد. فالإنسان لا يقارن نفسه غالبًا بمن يبعد عنه تمامًا، بل بمن يراه قريبًا من موقعه. نجاح البعيد خبر، أما نجاح النظير فقد يتحول عند النفس المريضة إلى تهديد.

وهنا يحتاج القلب إلى مقام الأخوة الصادق: أن يرى نجاح أخيه امتدادًا للخير، لا انتقاصًا من وجوده. فما دام المقصد واحدًا، فلماذا

يضيق حامل الرسالة بنجاح حاملٍ آخر؟ إن الذي يعمل لله يفرح بظهور الحق على يد غيره كما يفرح بظهوره على يده.

أما إذا أحرزته أن يُذكر غيره، فليفتش في نيته: هل كان يريد خدمة الحق، أم أن يكون هو عنوانه؟

من أدق اختبارات الإخلاص أن ترى مَنْ يشبهك يُقدّم عليك، ثم يبقى قلبك ناصحًا له.

الحسد المتكرر في صورة نقد

ليس كل نقدٍ حسدًا؛ فقد يكون واجبًا صادقًا، وقد يكون المنقود مخطئًا حقًا. ومن الظلم أن يرد الإنسان كل ملاحظةٍ إلى حسد قائلها، فيحصن نفسه من المراجعة، ويجعل نجاحه عصمة.

لكن الحسد قد يرتدي ثوب النقد، وله علاماتٌ تُلَمَح، وإن كنا لا نجزم بالنيات: أن يُضخم الخطأ الصغير عند الناجح، ويُغفل كل فضله، أو يفرح الناقد بعثرته أكثر مما يحرص على إصلاحه، أو يرفض الاعتراف بأي خيرٍ عنده، أو يغيّر المعيار كلما حقق نجاحًا جديدًا.

النقد الصادق يتجه إلى الفعل ويحفظ كرامة الفاعل، ويريد التصحيح. أما الحسد المتكرر فيجمع العيوب كي يهدم الصورة، ويستريح إذا سقط صاحبها.

ومع ذلك لا ينبغي للإنسان أن ينشغل بتشخيص قلوب منتقديه. يأخذ من النقد ما صح، ويترك ما بطل، ويستعيز بالله من الشر، ثم يمضي. فمعرفة الدافع ليست شرطاً للاستفادة من الحقيقة؛ قد يقولها حاسد، وتبقى حقيقة.

لا تجعل اتهام الآخرين بالحسد وسيلةً للهروب من إصلاح نفسك.

خوف المحسود من العيون

قد يُبتلى صاحب النعمة بخوفٍ يفسد عليه نعمته. يراقب نظرات الناس، ويخفي كل خيرٍ حتى يتحول الستر إلى قلق، ويشك في كل ثناء، ويتوقع الشر من كل وجه.

والسورة لا تريد للمؤمن أن يعيش هكذا؛ لأنها جاءت لتحرره من الخوف بالحماية، لا أن تسجنه في الحماية بالخوف. أمرته أن يستعيز بالله، وأن يتحصن بالأذكار، وأن ينسب الفضل إلى واهبه، ثم يعيش شاكراً متوازناً.

الستر حكمة، وليس كل نعمة تُعرض. وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام ألا يقص رؤياه على إخوته، فالحذر المشروع مطلوب. لكن الحذر شيء، والوسواس شيء آخر. الأول يختار ما يُظهر وما يُخفي بعقل، والثاني يجعل الإنسان أسيراً لعيون يتخيلها في كل مكان.

ليس المطلوب أن تنكر نعمة الله كيلا يراك الناس، ولا أن تتباهى بها فتستفز النفوس. بين الجحود والاستعراض مقامٌ جميل اسمه

الشكر: ترى النعمة من الله، وتستعملها في رضا، وتذكرها حيث يكون في ذكرها خير، وتصونها حيث يكون الكتمان أحكم.

لا تجعل الحسد تفسيرًا لكل شيء

من السهل على النفس أن تنسب إخفاقها إلى حسد الآخرين؛ لأن هذا يحميها من ألم المراجعة. إذا تعطل مشروع قال صاحبه: حُسدت، بدل أن يسأل عن التخطيط. وإذا اضطربت علاقة رد الأمر إلى عينٍ أصابتها، بدل أن ينظر في قسوة الكلام وإهمال الحقوق.

والحسد حق، والعين حق، لكن اتخاذهما تفسيرًا شاملاً يعطل العقل والعمل. ليس كل تعثرٍ أثر عين، ولا كل صدامٍ سحرًا، ولا كل نفورٍ كيدًا. في الحياة أسبابٌ مادية ونفسية واجتماعية ينبغي فهمها ومعالجتها.

المؤمن يجمع بين التحصين والمراجعة: يقرأ المعوذات، ويصلح خطته. يستعيز بالله، ويعتذر إن أخطأ. يرقى نفسه بالرقية الشرعية، ويراجع الطبيب إذا مرض. فكل ذلك من الأخذ بالأسباب التي شرعها الله.

وأحيانًا يكون السؤال الأصدق: هل هناك حاسد؟ وأحيانًا يكون: ما الخطأ الذي أستطيع إصلاحه؟

والحكمة ألا نستعمل الغيب سائرًا لقصورنا.

كيف يُعالج الحسد في القلب؟

إذا وجد الإنسان في نفسه انقباضاً من نعمة غيره، فلا ييأس ولا يتظاهر بأنه ملاك. الاعتراف بداية الشفاء. قل لنفسك: هذا مرضٌ لا أريد أن يسكنني، ثم خالفه بأفعالٍ عملية.

ادعُ لمن حسدته بالبركة، ولو ثقل الدعاء أول الأمر؛ فالدعاء يفك الارتباط بين نعمة الآخر وألمك، ويعيدك إلى سعة فضل الله.

اذكر نعم الله عليك؛ فالحسد يسلط الضوء على ما ينقصك، ويترك ما بين يديك في الظلام.

أثنِ على المحسن بما يستحق، ودرب لسانك أن يقول الحق الذي يضيق به الهوى.

حوّل المقارنة إلى تعلّم: بدل أن تسأل لماذا هو أفضل مني، اسأل ماذا أستطيع أن أتعلّم من تجربته؟

واستغفر الله كلما وجدت في قلبك تمنياً لزوال الخير.

قد لا يتطهر القلب دفعةً واحدة، لكن كل مقاومة صادقة فلقٌ صغير في ظلمته.

الغبطة؛ البديل النقي

الإسلام لا يطلب من الإنسان إلغاء الطموح، أو أن يكون بارداً أمام مراتب الفضل. هناك غبطةٌ مشروعة يرى بها المؤمن خيراً عند أخيه، فيتمنى مثله من غير أن يتمنى زواله عنه.

الغبطة تقول: ما أجمل ما أعطاه الله، اللهم بارك له وارزقني.

أما الحسد فيقول: يؤلمني أن يكون هذا عنده، ولو زال عنه لاستراح قلبي.

الغبطة تدفعك إلى العمل، والحسد يدفعك إلى مراقبة العاملين. الغبطة توسع الخير، والحسد يريد تقليله. الغبطة تريك الناجح دليلاً على إمكان الطريق، والحسد يريك فيه دليلاً على نقصك. وبين الشعورين مسافةٌ تصنعها سلامة الصدر.

نعمة أن تفرح لغيرك

الفرح بنعمة الآخرين ليس خلقاً زائداً فحسب؛ إنه توسعةٌ لحياتك. إذا كنت لا تفرح إلا بخيرك الشخصي، فقد ضيقت مصادر بهجتك. أما إذا فرحت بخير أهلِكَ وأصدقائك والمؤمنين، صارت لك في كل نجاح نافذة سرور.

الحاسد لا يملك إلا حياةً واحدةً يتألم بها، وصاحب القلب السليم يعيش أفراحاً كثيرةً في حياة مَنْ يحب.

وما أكرم القلب الذي لا يرى تألق الآخرين إطفاءً لنوره! يعرف أن السماء تتسع لنجومٍ كثيرة، وأن جمال نجمةٍ لا يحتاج إلى انطفاء سواها.

إن الناس لا يتساوون في المواهب، لكنهم يستطيعون أن يتكاملوا بها. ما ليس عندك قد يكون عند أخيك لتحتاج إليه، وما عندك قد

يكون عونًا له. فإذا دخل الحسد تحولت الهدايا إلى ميادين صراع، وإذا دخل الإيمان صارت أسباب تعاون.

حين يؤدي الحاسد

مع كل التربية على سلامة الصدر، لا تترك السورة أن للحاسد شرًا قد يظهر: تشويه سمعة، أو تعطيل مصلحة، أو إفشاء سر، أو سعي في إزالة النعمة.

وهنا لا يُطلب من المحسود أن يكون ساذجًا. يأخذ بالحذر، ويضع الحدود، ولا يكشف كل شأنه، ويدفع الظلم بالوسائل المشروعة. لكن قلبه يبقى معلقًا بالله، لا بالحاسد.

فإن انشغل بالانتقام حتى استولى الحاسد على أيامه، فقد منحه فوق ما أراد. وإن صار يقرأ كل حركة من خلاله، فقد جعله محور حياته. الحكمة أن توقف الأذى بقدر الاستطاعة، ثم تحرر وجدانك من الإقامة عند المؤذي.

لا تحمل الحاسد في قلبك أكثر مما حملك في قلبه.

وقد يكون الصفح ممكنًا مع التوبة والإصلاح، وقد تستلزم السلامة بُعدًا وحدودًا. العفو لا يعني تمكين المؤذي من تكرار أذاه. تستطيع أن تطهر قلبك من طلب الشر له، وفي الوقت نفسه تمنعه من الدخول إلى المساحة التي خانها.

لا تواجه الحسد بالتفاخر

قد يدفع شعور الإنسان بأنه محسود إلى مزيدٍ من الاستعراض، كأنه يريد أن يعاقب الحاسد بإظهار النعمة. لكنه بهذا يجعل نعمته جزءًا من خصومة، بدل أن تكون باب شكر.

النعمة أرفع من أن تستعملها لإيلاء أحد، حتى لو كان حاسدًا. وهي أمانةٌ بينك وبين الله قبل أن تكون رسالةً إلى الناس.

كلما زادك الله، ازداد تواضعًا ورحمة. تذكر أن الفضل ليس شهادةً على كمالك، بل امتحانٌ لأمانتك. وما تملكه اليوم يمكن أن يتغير غدًا، فلا تجعل عطية الله سلماً تتعالى به على عباده.

إن التواضع يحرس النعمة من شر النفس قبل شر الحاسدين.

أخطر حاسدٍ قد يسكنك

يسهل أن تقرأ الآية وأنت تستحضر وجوه من تظن أنهم يحسدونك، لكن التدبر الصادق يرد الآية إلى قلبك أيضًا. أنت لست دائمًا المحسود؛ قد تكون في موضع الحاسد دون أن تعترف.

هل يضيق صدرك إذا مُدح غيرك؟

هل تبحث فورًا عن نقصه لتعيد التوازن إلى نفسك؟

هل تفرح سرًا إذا تعثر من ينافسك؟

هل يصعب عليك أن تدعو له بصدق؟

هذه الأسئلة لا يُقصد بها تعذيب النفس، بل إنقاذها من مرضٍ يستتر بسهولة. فالحسد يحب أن يسمي نفسه نقدًا، أو غيرهً على الحق، أو طلبًا للعدل. وقد يكون بعض ذلك صحيحًا، لكن القلب وحده يعرف الوجع الذي أصابه لمجرد ظهور النعمة.

قل: يا رب، أعذني من شر حاسدٍ إذا حسد، وأعذ عبادك من حسدي إذا تحرك. لا تجعل فضلك على أحدٍ سببًا لاعتراضي، ولا نجاحه مرآةً أحتقر فيها نفسي.

الحسد والرضا عن الله

أعمق علاجٍ للحسد ليس الانشغال بالمحسود، بل إصلاح العلاقة بالمنعم. حين يرضى القلب عن الله، لا يعني أنه ينال كل ما يريد، بل يثق بأن الله لم ينسه حين أعطى غيره.

قد يختلف عطاؤك عن عطاء أخيك، لكن الاختلاف ليس إهمالًا. الله يربي كل عبدٍ بما يصلحه، وقد يمنع شيئًا لأن وراءه شرًّا لا تراه، أو يؤخره حتى تنضج له، أو يعوضك في موضعٍ لا تقيسه بالمقاييس الظاهرة.

والرضا لا يمنع الدعاء والطموح؛ بل يطهرهما من الاعتراض. تقول: يا رب، أتمنى هذه النعمة، فإن كانت خيرًا فارزقني، وبارك لعبدك فيما أعطيته.

هكذا يتحول نجاح الآخر من جدارٍ أمامك إلى بابٍ يذكرك بسعة الكريم.

القلب الذي اتسع لقسمة الله

سلامة الصدر ليست سذاجةً عاطفية، بل مقامٌ عظيم من التوحيد. أن ترى فضل الله يجري على غيرك فلا تضيق؛ لأنك تعلم أن المانع حكيم، وأن خزانته لا تنفد، وأن قيمتك لا تتحدد بمقدار ما تفوقت به على الآخرين.

أنت لا تحتاج إلى أن يكون غيرك أقل حتى تكون ذا قيمة، ولا إلى أن يخفت صوته حتى يُسمع صوتك، ولا إلى أن يفشل حتى يثبت نجاحك.

لك موضعك الذي لا يملؤه غيرك، ورسالتك التي ستُسأل عنها، وعطاياك التي ربما اعتادتها عينك حتى لم تعد تراها.

الحسد يجعلك تعيش خارج نفسك، والرضا يعيدك إليها. يضعك أمام أرضك الخاصة ويقول: ازرع هنا؛ فإله لن يسألك لماذا لم تكن فلائاً، بل ماذا فعلت بما أعطاك.

الاستعادة التي تطهر الطرفين

في ختام السورة يستعيز المؤمن من شر الحاسد، لكن الاستعادة الكاملة تحمي المحسود والحاسد معاً: تحمي الأول من الأذى، وتحمي الثاني من أن يستبد به مرضه.

فإذا قرأت الآية فلا تقلها بشعور التفوق الأخلاقي، كأنك النقي والناس كلهم يراقبون نعمتك. قلها وأنت مفقّرٌ إلى حفظ الله من الخارج والداخل، من أعين الآخرين ومن عين نفسك إلى ما عندهم.

يا رب، احفظ نعمتك عليّ من شر الحاسدين، واحفظ قلبي من الغرور بها.

واحفظني من أن أتألم لخير أصاب عبداً، أو أتمنى زوال ما قسمت له.

وارزقني قلباً إذا رأى نعمةً قال: اللهم بارك، وإذا رأى فضلاً قال: هذا من سعة خزائلك، وإذا فاتته شيءٌ قال: لعل في اختيارك رحمة.

إن الحاسد يريد أن يطفئ نوراً، لكنه لا يعلم أن الأنوار بيد رب الفلق.

قد يحاول تشويه الجمال، أو تعطيل المسير، أو ربط العقد، لكن عطاء الله لا يحرسه قلق المحسود؛ وإنما يحرسه واهبه.

فلا تجعل الحاسد أكبر في قلبك من ربك، ولا تجعل خوفك من عينه يحجب عينك عن المنعم.

وامض بنعمتك شاكرًا، متواضعًا، مستنيرًا بما تقتضيه الحكمة، ظاهرًا بما تقتضيه الرسالة.

فوق كل حاسدٍ ربٌّ يعلم.

وفوق كل كيدٍ قدرٌ يحكم.

ووراء كل ظلمةٍ فلق.

الفصل التاسع

لَا تَجْعَلِ الْحِمَايَةَ خَوْفًا

بين التحصن بالله وسوء الظن والوسواس

جاءت سورة الفلق لتمنح القلب مأمناً، لا لتضيف إلى مخاوفه خوفاً جديداً. نزلت لتُخرج الإنسان من التشبث بين الشرور إلى الاجتماع على باب الله، لا ليظل يراقب كل عين، ويفتش في كل نية، ويبحث خلف كل حادثة عن يدٍ خفية.

لكن الإنسان قد يسيء استعمال ما شرع لحمايته؛ فيحوّل الحذر إلى ريبة، والتحصين إلى طقسٍ مذعور، والإيمان بوجود الحسد والسحر إلى إقامةٍ دائمة في عالم الظنون. وعندها ينقلب العلاج إلى بابٍ آخر للقلق، لا لقصور في الوحي، بل لأن الخوف استولى على طريقة التلقي.

إن سورة الفلق تبدأ برب الفلق، لا بالغاسق، وتجعل وجهة القلب إلى الله، لا إلى الشر. وكل فهمٍ للسورة يجعل الحاسد أكبر حضوراً في الشعور من الله، أو يجعل السحر أقوى في النفس من الاستعاذة، فهو فهمٌ اختل فيه الميزان.

التحصن ليس إعلاناً بأن العالم يطارذك

حين يقرأ المؤمن المعوذات صباحاً ومساءً، لا يقول بذلك إن كل الناس أعداؤه، ولا إن الشر يتربص به خلف كل باب. إنه يعترف

فقط بحقيقته البشرية: أنا محدود العلم والقدرة، فأضع يومي في حفظ الله.

التحصن عبوديةً هادئة، لا حالة طوارئ دائمة.

تقرأ سورة الفلق، ثم تذهب إلى عملك، وتخالط الناس، وتحب، وتبني، وتجرب. لا تبقى عند باب بيتك تنتظر الغاسق والحاسد والنفاثات. لقد استعذت بالله لكي تعيش مطمئنًا، لا لكي تتوقف عن الحياة.

وكما أن إغلاق الباب ليلاً لا يعني أنك تتهم كل عابر بالسرقة، فإن قراءة المعوذات لا تعني أنك تتهم كل ناظرٍ بالحسد. الحذر المشروع يعترف بإمكان الخطر، لكنه لا يحكم بوقوعه بلا بينة.

أما الوسواس فيحوّل الإمكان إلى يقين: ما دام الحسد موجودًا، فلا بد أن كل تعبٍ منه؛ وما دام الشر خفيًا، فكل إنسانٍ محتملٌ أن يكون مصدره. وهنا تضيق الحياة حتى لا يبقى في القلب موضعٌ للثقة أو الراحة.

حين يُساء فهم الحسد

الحسد حق، والعين حق، والاستعاذة منهما مشروعة. لكن الإيمان بهما لا يمنح الإنسان قدرةً على قراءة قلوب الناس. فالنيات غيب، وقد يظلم المرء أخاه بمجرد إحساسٍ لم يقم عليه دليل.

قد ينظر إنسان إلى نعمتك إعجابًا، فتقرأ نظرتَه حسدًا. وقد يصمت لأنه مهموم، فتفسر صمته ضيقًا بنجاحك. وقد ينتقد فعلاً لك عن صدق، فتزد نقه إلى الحسد حتى لا تراجع نفسك.

وهكذا يصبح اتهام الناس بالحسد درعًا يحمي الأنا من كل ملاحظة، ويمنحها شعورًا خفيًا بالتفوق: الجميع مشغولون بي، والجميع يتمنون ما عندي.

وقد لا يكون في الأمر حاسد، بل نفسٌ بالغت في تقدير موقعها في أنظار الآخرين.

ليس كل من لم يصفق لك حاسدًا، ولا كل من خالفك كارهاً، ولا كل من نجح حيث فشلت متأمراً عليك. الناس يحملون همومهم الخاصة أكثر مما نتصور، وليسوا متفرغين دائماً لمراقبة حياتنا. ومن التواضع أن تعرف أنك لست مركز العالم.

الخوف الذي يبحث عن أدلة

إذا استقر الخوف في النفس، بدأ يبحث في الواقع عما يثبتته. يرى عشرات المواقف المحايدة، لكنه يتوقف عند موقفٍ واحد يمكن تفسيره بما يخاف. ثم يستدعي كل حادثةٍ مشابهة، ويبني منها رواية متماسكة في ظنه.

وهكذا يعمل التحيز الداخلي: لا يرى الإنسان الأشياء كما هي، بل كما صار مستعداً لأن يراها. فإذا امتلأ خوفاً من الحسد، وجد الحسد

في كل وجه. وإذا خاف الخيانة، حوّل كل تأخير في الرد إلى علامة. وإذا عاش متوقعًا الشر، أصبحت المصادفات مؤامرات.

والعلاج ليس في إنكار كل احتمال، بل في التثبت. اسأل نفسك: ما الحقيقة التي أعلمها؟ وما التفسير الذي أضفته؟ هل لدي دليل، أم أن الخوف يملأ الفراغ؟

فصلُ الواقع عن التأويل فلقٌ عقلي؛ يعيد إلى الإنسان قدرته على رؤية الأشياء دون دخان المشاعر.

قد يكون إحساسك تنبيهًا يستحق الانتباه، لكنه ليس حكمًا قضائيًا. راقب بهدوء، وضع حدودًا حكيمة، ولا تدن قلبًا لا يعلم ما فيه إلا الله.

سوء الظن لا يحميك من الخيبة

قد يختار الإنسان أن يسيء الظن بالجميع، معتقدًا أن ذلك يحميه من الصدمة. يقول: إذا توقعت الشر فلن أفاجم به. لكنه يدفع ثمنًا باهظًا؛ يعيش ألم الخيانة قبل أن تقع، ويحرم نفسه من دفء العلاقات الصادقة خوفًا من علاقةٍ قد تخذله.

سوء الظن لا يمنع الخيانة، بل يجعل الإنسان يتذوق مرارتها وهو آمن. وقد تؤدي الشكوك المتكررة إلى إفساد علاقةٍ كانت بريئة، فيصنع الخوف الشيء الذي أراد تجنبه.

والبديل ليس الثقة العمياء، بل الثقة المبصرة: أن تنظر إلى الأفعال، وتدع الزمن يكشف الاتساق، ولا تمنح أسرارك وحقوقك

لمن لم يُختبر، لكنك لا تعاقب الصادقين على جرائم ارتكبها غيرهم في ماضيك.

الحكمة لا تقول: كل الناس أخیار. ولا تقول: كلهم أشرار. إنها تقول: الناس متفاوتون، فضع كل إنسانٍ في الموضع الذي دل عليه خلقه وعمله.

أما السريرة الأخيرة فدعها لرب القلوب.

التحصين لا يلغي الأسباب

قد يقرأ الإنسان سورة الفلق، ثم يهمل ما يلزمه من أسباب السلامة، وكأن التلاوة تعفيه من المسؤولية. لكن الاستعاذة الصادقة توقظ العمل، لا تعطله.

مَن يستعيز بالله من شر المرض يعتني بصحته ويطلب العلاج. ومَن يخاف شر معتدٍ لا يسلمه مفاتيح بيته ثم يقول: أنا متوكل. ومَن يستعيز من شر الكلمات لا يكشف أسرارهِ لكل أحد. ومَن يخشى تفكك علاقته لا يكتفي بالرقية، بل يراجع الحقوق والحوار والسلوك.

فالشر قد يأتيك من سببٍ غيبي، وقد يأتي من إهمالٍ ظاهر. والإيمان لا يجعلنا أسرى تفسيرٍ واحد؛ بل يدعونا إلى النظر في كل سببٍ مشروع يمكن فحصه ومعالجته.

إن الطبيب سبب، والدواء سبب، والمشورة سبب، والأنظمة العادلة سبب، والحدود الصحية في العلاقات سبب. وكلها من خلق الله وتيسيره.

والتوكل ليس ترك السفينة بلا إصلاح ثم انتظار ألا يدخل الماء؛ بل سدُّ الثقب، مع العلم أن البحر والسفينة والنجاة كلها بيد الله.

الرقية ليست بابًا للاستغلال

حين يشتد الخوف، يصبح الإنسان قابلاً للتعلق بمن يعده بتفسير سريع وحلٍ حاسم. وقد يستغل بعض الناس هذا الضعف، فيرون السحر في كل عرض، ويتهمون الأقارب بلا بينة، ويطلبون أموالاً أو ممارساتٍ لا أصل لها.

والرقية الشرعية في حقيقتها واضحة نقية: قرآن، وأدعية ثابتة أو مشروعة المعنى، وتوحيدهً يعلق القلب بالله. لا تحتاج إلى طلاس مجهولة، ولا استعانة بالجن، ولا ادعاء معرفة الغيب، ولا سؤالٍ عن اسم الأم، ولا أحجية وحروف مبهمّة.

كل طريقٍ إلى العلاج يجرح التوحيد ليس علاجًا، ولو وعد صاحبه بنتائج سريعة.

ومن علامات الراقي الأمين أنه لا يضخم نفسه في قلب المريض، ولا يجعله تابعًا خائفًا، ولا يجزم بلا علم أن فلانًا سحره. يعلمه أن الشافي هو الله، ويحثه على الأذكار والطاعة والأسباب الطبية والنفسية حيث تلزم.

أما من يجعل كل سلامتك معلقةً به، فقد نقل خوفك من الشر إلى التعلق بشخصه.

بين المرض الروحي والمرض النفسي

قد تتشابه بعض الأعراض في ظاهرها: خوف، وأرق، وضيق، وخفقان، وعزلة، وأفكار ملحة. وقد يسرع الإنسان إلى تفسيرها بالسحر أو العين، بينما تكون لها أسباب نفسية أو جسدية معروفة تحتاج إلى تشخيص متخصص.

ولا تعارض بين الرقية الشرعية والعلاج النفسي أو الطبي. فالإنسان جسّد ونفسٌ وروح، وقد يحتاج إلى رعايةٍ تتناول أكثر من جانب. والذهاب إلى الطبيب لا يعني ضعف الإيمان، كما أن قراءة القرآن لا تعني إنكار الطب.

من الحكمة أن يبدأ المرء بالأسباب القابلة للفحص، خاصةً إذا استمرت الأعراض أو عطلت حياته. وقد يكون في العلاج الذي ييسره الله جزء من الحفظ الذي طلبه العبد حين استعاذ.

ولا يجوز أن نحمل المريض شعورًا بالذنب، فنقول له: لو كان إيمانك قويًا لما أصابك القلق أو الاكتئاب. فالمرض ليس حكمًا على منزلة صاحبه، والأنبياء ابتلوا في أجسادهم وأحوالهم. والإيمان يعين على المرور بالمرض، لكنه لا يجعل المؤمن خارج سنن البشرية.

الطمأنينة ليست غياب الاحتياط

قد يظن بعض الناس أن المطمئن لا يحذر، وأن الحذر علامة ضعف اليقين. لكن النبي ﷺ أخذ بالأسباب، وكنم بعض الخطط، واتخذ الدليل في الهجرة، ولبس لأمة الحرب. لم يكن ذلك نقصاً في التوكل، بل تماماً له.

الطمأنينة موضعها القلب، والاحتياط عمل الجوارح. يجتمعان من غير تناقض: تأخذ السبب كاملاً، لكنك لا تعيش تحته مرتجفاً. تخطط، ثم تنام؛ لأنك تعلم أن ما بقي بعد جهدك في يد الله.

أما القلق فيطالك بسببٍ بعد سبب، ولا يسمح لك بالتوقف؛ لأن غايته ليست الحكمة، بل الوصول إلى ضمانٍ كامل لا وجود له في الدنيا. ومهما احتطت، سيقول لك: ربما نسيت شيئاً.

هنا ينبغي أن تضع حدًا: فعلت ما أستطيع، والباقي عند الله.

هذه الجملة ليست تهاونًا؛ إنها عبادة التسليم بعد استفاد الوسع.

حين يتحول الذكر إلى فحصٍ قهري

قد يوسوس الإنسان في عدد قراءاته أو نطق كلماته، فيعيد السورة مرارًا لا حبًا في الذكر، بل خوفًا من أن القراءة الأولى لم تكف. فإذا حاول التوقف شعر أن الشر سيقع بسبب تقصيره.

وهنا ينبغي أن يُدرك أن الله أرحم به من أن يجعل حفظه معلّقاً بهذا العنت. الأذكار عبادةٌ تقوم على الاتباع وحضور القلب بقدر الاستطاعة، لا على التكرار القهري الذي يستنزف النفس.

اقرأ ما ورد، وامض واثقاً بالله. فإن دخل الشك فلا تفتح معه نقاشاً طويلاً، ولا تعد العبادة بلا دليل. فكل استجابةٍ للوسواس تعلّمه أن يطالبك بالمزيد.

التحصين يقول: ذكرت الله واستودعته نفسي.

والوسواس يقول: ربما لم يكن ذكرك صحيحاً، فأعد.

الإيمان يردُّ الأمر إلى رحمة الله، والوسواس يرده إلى كمال أذائك أنت. وكأن الحفظ لا يتم إلا إذا لم تخطئ أو تسه، مع أن ربك يعلم ضعفك، ولا يضيع من قصده صادقاً.

لا تُحصّن أبناءك بالخوف

قد يريد الأب أو الأم حماية الأطفال، فيكثر أمامهم الحديث عن العين والسحر والجن، حتى يصبح العالم في مخيلتهم ممتلئاً بكائنات تتربص بهم. يتعلم الطفل الأذكار، لكنه يتعلم معها أن كل شيء مخيف.

والأصل أن نزرع أولاً معرفة الله: الله يحفظنا، وهو معنا بعلمه ورعايته، وقد علمنا كلماتٍ جميلة نقولها في الصباح والمساء. نُعرّفهم بالملجأ قبل الخطر، كما فعلت السورة.

لا نُقَلِّ للطفل: اقرأ وإلا سيصيبك كذا. بل نقول: اقرأ لأن الله يحب الذكر، ولأننا نضع أنفسنا في حفظه.

إن الصورة التي تتشكل عن الله في قلب الطفل مهمة؛ نريده أن يراه ربًّا رحيماً يلجأ إليه، لا مجرد قوةٍ يستدعيها حين يرتعب. نعلمه الحذر من دون أن نسلبه براءة الثقة، ونحدثه عن الشر بالقدر الذي يناسب عمره وقدرته.

فالتربية الإيمانية لا تصنع قلباً مذعوراً من المخلوقات، بل قلباً عارفاً بالخالق.

كيف تعرف أن الحذر تجاوز حدّه؟

يمكن للإنسان أن يسأل نفسه:

هل تمنعني مخاوفي من أداء أعمالي الطبيعية؟

هل أتهم الناس بلا دليل؟

هل أكرر التحصين لا تعبداً، بل تحت ضغطٍ لا يهدأ؟

هل أنسب كل مشكلة إلى سببٍ خفي وأرفض فحص الأسباب

الظاهرة؟

هل صرت أكثر حديثاً عن الحاسدين من الحديث عن نعم الله؟

هل أشعر أن حياتي تحت سلطان الشر أكثر من شعوري بأنها في

ملك الله؟

إذا كانت الإجابات تميل إلى نعم، فربما انتقل الحذر من وظيفته النافعة إلى دائرة الوسواس. وهنا يكون طلب المساعدة من متخصص موثوق خطوة من خطوات الأخذ بالأسباب، لا نقصاً في الإيمان.

والإنسان لا يُلام على الخوف الذي هجم عليه، لكنه يستطيع أن يتعلم كيف لا يطيعه في كل ما يطلب.

التوكل يحرر الحاضر

الخوف المفرط يسرق من الإنسان يومه بحجة حمايته من الغد. يجعله يعيش داخل احتمالات الشر، فلا يذوق نعمة قائمة، ولا مودة حاضرة. أما التوكل فيعيده إلى اللحظة التي أقامه الله فيها.

أنت الآن في عافية؟ فاشكرها ولا تحوّلها إلى ترقب المرض.

أنت الآن مع مَنْ تحب؟ فأحسن إليه ولا تسمم اللقاء بالخوف من الفقد.

فتح الله لك باباً؟ فادخله بتواضع، ولا تجعل خشية الحسد تمنعك من أداء رسالتك.

التوكل لا يعدك ببقاء الأشياء كلها، لكنه يمنحك قدرة على استقبالها كما هي: نعمة تُشكر ما دامت، وأمانة تُراعى، ثم إن تغيرت استعنت بالله على قدرها الجديد.

الحياة لا تُعاش بالضمان، بل بالثقة.

اجعل قلبك أكبر من مراقبة الناس

مَنْ ظَلَّ يَرِاقِبُ أَعْيُنَ النَّاسِ فَقَدْ رَبَطَ سَلَامَهُ بِحَرَكَةٍ لَا يَمْلِكُهَا.
سيخفي نفسه، ويحسب كلماته لا أدبًا بل خوفًا، ويقرأ الوجوه حتى
يتعب.

أَمَّا مَنْ رَاقَبَ اللَّهَ اسْتِرَاحَ مِنْ كَثِيرٍ مِنْ مَرَاقِبَةِ الْخَلْقِ. يَعْرِضُ
نِعْمَتَهُ بِقَدَرٍ، وَيَسْتَرَهَا بِقَدَرٍ، وَيَجْعَلُ مَعْيَارَهُ: مَا الَّذِي يَرْضَى اللَّهُ
وَيَنْفَعُ؟ لَا: كَيْفَ أَضْمَنُ أَلَا يَحْسُدَنِي أَحَدٌ؟

فَلَنْ تَسْتَطِيعَ مَنَعَ الْحَسَدِ مِنْ كُلِّ قَلْبٍ، كَمَا لَا تَسْتَطِيعُ مَنَعَ اللَّيْلِ مِنْ
الْمَجِيِّءِ. لَكِنَّكَ تَسْتَطِيعُ أَلَا تَمْنَحُهُمَا السِّيَادَةَ عَلَى رَوْحِكَ.

الْحَاسِدُ يَحْمِلُ مَرَضَهُ، وَأَنْتَ تَحْمِلُ أَمَانَةَ حَيَاتِكَ؛ فَلَا تَتْرَكَ أَمَانَتَكَ
لِتَقِيمَ عِنْدَ مَرَضِهِ.

من التحصّن إلى الانطلاق

إِذَا أَنْهَيْتَ سُورَةَ الْفَلَقِ، فَلَا تَبْقَ وَاقِفًا عِنْدَ ذِكْرِ الشَّرُورِ. لَقَدْ
أَوْدَعْتَهَا عِنْدَ رَبِّهَا. امْضِ إِلَى عَمَلِكَ وَعِبَادَتِكَ وَمَحَبَّتِكَ، وَكُنْ نَافِعًا،
وَأُظْهِرْ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ مَا يَحَقُّ خَيْرًا، وَاسْتَرِ مَا يَكُونُ السِّتْرَ فِيهِ
حِكْمَةٌ.

ثَقِّ، لَكِنْ لَا تَكُنْ سَانِدًا.

احْذَرِ، لَكِنْ لَا تَكُنْ مَذْعُورًا.

خُذْ بِالْأَسْبَابِ، لَكِنْ لَا تَعْبُدْهَا.

استعذ بالله، ثم لا تعد كل دقيقة لتتفقد إن كان قد حفظك؛ فتقتك بحفظه جزءً من استعادتك.

إن الطفل إذا دخل بيت أبيه فرارًا من الخطر لا يظل عند الباب يراقب الطريق؛ يدخل ويسكن. فكيف بمن دخل جوار رب الفلق؟
اقرأ السورة بقلبٍ يقول:

يا رب، أعوذ بك من الشر، وأعوذ بك من أن يسرق الخوف من الشر حياتي.

أعوذ بك من الحسد، ومن سوء الظن الذي يجعلني أتهم الأبرياء به.

وأعوذ بك من السحر، ومن الوهم الذي يجعلني أراه في كل عثرة.

وأعوذ بك من الغاسق، ومن أن أحمل ظلامه في داخلي بعد طلوع الصبح.

احفظني حفظًا يزيدني بك ثقة، وبعبادك رحمة، وبالحياة إقبالًا.

فإن السورة التي تبدأ بالفلق لا ينبغي أن تترك قارئها مقيمًا في الظلام.

الخاتمة

لِكُلِّ لَيْلٍ فَلَقْ

تنتهي سورة الفلق، لكن المعنى الذي تفتحه لا ينتهي؛ لأن الإنسان ما دام حيًّا سيمر بين ضوء وظلمة، وأمن وخوف، ووضوح وغموض. ستأتيه أشياء يعرفها فيستعد لها، وأشياء تتوارى خلف الغيب فلا يدري من أين تقبل. وسيظل ضعيفًا أمام جوانب من الوجود لا يحيط بها علمه ولا تبلغها قدرته.

لكن السورة لا تعدُّ هذا الضعف عيبًا ينبغي أن يخجل منه الإنسان؛ فالضعف جزءٌ من معنى عبوديته. إنما الخطر أن يجهل ضعفه، فيحاول حمل الكون على كتفيه، أو يعرفه ثم لا يعرف المأوى، فيتفرق قلبه بين الأبواب.

وقد جاءت سورة الفلق لتضع في يد هذا الإنسان كلمةً أقوى من خوفه:

﴿أَعُوذُ﴾.

إنها لا تمنحه قوةً متوهمة تجعله فوق طبيعته، بل تمنحه ما هو أصدق وأعمق: أن يعرف موضع ضعفه وموضع القوة، وأن يخرج من سجن الاعتماد على ذاته إلى سعة الاعتماد على الله.

السورة التي تبدأ قبل الشر

من ألطف أسرار البناء في السورة أن الله لم يبدأ بتعداد الشرور، بل بدأ بنفسه سبحانه:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.

قبل الغاسق ربُّ الفلق، وقبل النافثات ربُّ الفلق، وقبل الحاسد ربُّ الفلق. وكأنّ الوحي يعلمنا ترتيباً ينبغي ألا يختل في شعور المؤمن: الله أولاً، ثم انظر بعد ذلك إلى ما تخاف.

إن الإنسان إذا بدأ بالخطر كبير الخطر في قلبه، وربما حجب عنه كل شيء. أما إذا بدأ بالله، فقد وضع الخطر منذ اللحظة الأولى داخل إطاره الصحيح: مخلوقاً محدوداً لا يتجاوز سلطان خالقه.

ليست الطمأنينة أن تقنع نفسك بأن الشر غير موجود، بل أن تعرف أنه ليس موجوداً وحده؛ فوقه قدرة الله، وحوله علم الله، وفي مواجهته حفظ الله، ومن ورائه حكمة الله، وفي النهاية عدل الله.

وما بين البداية والنهاية رحمةٌ لا تنقطع، وإن خفيت على العين ساعة الألم.

خمس آيات تعيد ترتيب العالم

في خمس آيات فقط تنقل السورة الإنسان من التشتت إلى الجمع، ومن ملاحقة الشر إلى الاحتماء بربه، ومن تضخيم المخلوقات إلى شهود الخالق.

تقول له: تكلم، ولا تدع الخوف يستبد بصمتك:

﴿قُلْ﴾.

وتقول له: لا تقف داخل ضعفك، بل تحرك منه إلى الله:

﴿أَعُوذُ﴾.

وتقول له: ملجؤك ليس قوةً مجهولة، بل ربُّ يرعاك ويدبرك
ويخرج النور من قلب الظلام:

﴿يَرْبِ الْفَلَقِ﴾.

ثم تضع الشرور جميعاً تحت كلمة واحدة:

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

وتأخذ بيدك في ظلمة الليل:

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

وتحميك من الأذى الذي يعمل وراء الحواس:

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾.

وتصل إلى القلب الإنساني حين يفسده الحسد:

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

خريطة كاملة للشر، لكن مركزها ليس الشر؛ مركزها ربُّ الفلق.

ما لا تعرفه يعلمه الله

لعل أكثر ما يرهق الإنسان ليس الأذى الذي وقع، بل الذي يحتمله
ولا يعرفه. يخشى ما يدبر خلفه، وما تخفيه القلوب، وما قد يحمله
الغد. يفتش عن معلومات تمنحه يقيناً، ثم يكتشف أن كل معلومة تفتح
احتمالات جديدة.

وتأتي سورة الفلق لتمنحه راحةً لا تقوم على الإحاطة، بل على الثقة. ليس عليك أن تعرف كل ما خفي كي تكون في مأمن؛ يكفي أن الذي استعدت به يعلمه.

إن حاجتك إلى كشف جميع النيات هي محاولة للخروج من حدود البشرية. فلن تعرف القلوب كلها، ولن ترى كل طريق قبل أن تسلكه، ولن تستطيع ضمان ألا يخذلك أحد.

لكن بإمكانك أن تقول: يا رب، أعطني مما تعلمه ولا أعلمه. وهذه الجملة تضع المجهول في يد مَنْ أحاط به، ثم تردُّك إلى حياتك.

كم من طاقةٍ تهدرها النفس في محاولة معرفة ما لم تُكَلَّف بمعرفته! من يحبني حقًّا؟ من يحسبني؟ ماذا يقولون عني؟ ماذا سيحدث؟ ولو اشتغلت بما كُلفت به، وتركت ما غاب لعلام الغيوب، لاتسع في قلبك موضعٌ للسكينة والعمل.

لا تجعل الشرَّ قبلةً وعيك

يمكن للإنسان أن يقضي حياته في مقاومة الشر حتى يصير الشر مركز حياته. يقرأ عنه، ويتتبعه، ويراقبه، ويعيد الحديث عنه، حتى تمتلئ روحه بصورة ما يكره.

لكن القرآن حين يعرفك بالشر لا يريدك أن تعبد بالخير أو المتابعة. يريدك أن تعرفه بقدر ما يحفظ بصيرتك، ثم تواصل صناعة الخير.

فليس انتصارًا أن تعرف أسماء الحاسدين كلهم، بل أن يبقى قلبك سليمًا.

وليس انتصارًا أن تكشف كل مؤامرة، بل أن تؤدي رسالتك رغم الكيد.

وليس انتصارًا أن تمنع عن حياتك كل ليل، فهذا لا يكون في الدنيا؛ بل أن تحمل في الليل معرفةً برب الفلق.

المؤمن لا يغمض عينيه عن الظلمة، لكنه لا يجعلها قبلته. قبلته الله، ورسالته أن يزيد مساحة النور ما استطاع.

من طلب الحماية إلى صناعة الأمان

من قرأ سورة الفلق طالبًا للأمان ينبغي أن يسأل نفسه: هل يأمن الناس شرّي؟

هل يأمنون لساني حين يغيبون؟

هل يأمنون سرهم إذا اختلفت معهم؟

هل يأمنون حسدي إذا تفوقوا؟

هل يأمنون أن أنفث في عُقد علاقاتهم، أو أن أنقل كلمةً تفسد ودًا؟

لا يكتمل أثر الاستعاذة حتى تتحول إلى أخلاق. فما معنى أن
تطلب من الله أن يحميك من أذى الخلق، ثم تكون أنت أذى على
خلقه؟ وما معنى أن تستعيز من الحاسد، ثم يتألم قلبك كلما نال أخوك
خيرًا؟

قل: يا رب، أعذني من الشر إذا قصدني، وأعذ غيري من الشر
إذا تحرك فيّ.

اجعلني ممن إذا دخلوا حياة إنسان زادوه أمناً، وإذا عرفوا سرّاً
حفظوه، وإذا رأوا نعمة باركوا، وإذا سمعوا كلمة فتنة دفنوها قبل أن
تصل إلى قلب.

إن أجمل أثر لسورة الفلق أن تجعل قارئها فلقاً صغيراً في عالم
الآخرين؛ حضوراً يبدد الخوف، وكلمةً تحل العقد، وقلباً يتسع لنعمة
غيره.

الليل ليس شرّاً كلّهُ

استعاذت السورة من شر الغاسق إذا وقب، ولم تستعذ من الليل في
ذاته. والليل من آيات الله؛ فيه السكون، وقيام العابدين، وأسرار
الدعاء. وهذا يعلمنا ألا نختصر الأشياء في وجوهها المؤلمة.

المحنة قد تحمل شرّاً وألماً، لكنها قد تفتح باباً إلى الله.

والعزلة قد تكون وحشة، وقد تكون خلوة تستعيد فيها روحك.

والصمت قد يكون عجزاً، وقد يكون حكمة.

والتأخير قد يكون حرمانًا، وقد يكون حمايةً وإعدادًا.

ليس كل ظلام شرًّا خالصًا، ولا كل ضوء خيرًا خالصًا. كم من أضواء الشهرة أحرقت القلوب، وكم من ليالٍ خفية صنعت الأولياء! لذلك لا تطلب من رب الفلق أن يزيل كل ليلٍ من حياتك، بل أن يحفظك من شره، ويريك نجومه، ويخرجك منه بالنور الذي أراده لك.

قد يكون الفلق تغييرًا فيك

ننتظر الفرج غالبًا بوصفه تغييرًا في الخارج: أن يزول المرض، ويرحل العدو، ويعود الغائب، ويفتح الباب. وهذه مطالب مشروعة، وربنا قادرٌ عليها.

لكن الفلق قد يبدأ في الداخل قبل أن يتغير الخارج. قد يمنحك الله فهمًا جديدًا، أو يحرر قلبك من تعلقٍ كان يعذبك، أو يزرع فيك قبولًا حكيماً، أو قوةً تمضي بها رغم بقاء بعض الألم.

قد يبقى الليل حولك، لكن الله يطفئ ليله من داخلك.

وهذا ليس فرجًا ناقصًا؛ فربما كان أعظم الفرج أن يتوقف الشيء عن امتلاكك، ولو لم يخرج من واقعك فورًا. أن يظل الظالم ظالمًا، لكنك لا تعود تقيس قيمتك بكلماته. وأن يبقى الفقد حقيقة، لكنه لا يمنعك من رؤية ما بقي. وأن تشعر بالخوف، لكنه لا يختار طريقك بدلًا منك.

النصر على الظرف جميل، والنصر على عبوديته أجمل.

ما بين الفلق والفلق

كل صباح فلُق، وكل توبة فلُق، وكل معرفة تهزم جهلاً فلُق، وكل كلمة حق تشق صمت الخوف فلُق. وكأن حياة المؤمن انتقالاً من فلُق إلى فلُق؛ يخرج من ظلمة، ثم يدخل امتحاناً آخر، لكنه يحمل معه معرفة تراكت: لقد جاء الصبح من قبل، وسيأتي بلطف الله مرة أخرى.

والذاكرة الإيمانية تحفظ مواقع الفلق القديمة. حين يشتد ليل جديد، تقول للقلب: أتذكر الليلة التي ظننت أنها لن تنتهي؟ لقد انتهت. أتذكر الباب الذي ظننته آخر الأبواب؟ فتح الله بعده طريقاً.

ليس معنى ذلك أن الله سكرر الحل نفسه؛ لكنه لم يتغير سبحانه. ربُّ فلُقك القديم هو ربُّ ليلك الحاضر.

ومن الوفاء للنعم أن نستدعيها عند الخوف؛ لا لنهرب من الواقع، بل لنذكر النفس أن لها تاريخاً مع الحفظ الإلهي.

الفلق الأكبر

قد يموت إنسان وفي قلبه أمنية لم تتحقق، أو حق لم يُرد، أو جرح لم يرَ جبره كاملاً في الدنيا. فهل يبقى ليله بلا فلُق؟

كلا؛ فالمؤمن لا يحصر العدل والرحمة في سنوات الأرض. هناك فلُق أكبر تشق فيه القيامة ظلمة التاريخ، وتُبعث الأجساد من القبور،

وتظهر الحقائق التي أخفاها الغاسق، وتُفك العقد التي عجز البشر عنها، ويقف الحاسد والمحسود والظالم والمظلوم بين يدي الحكم العدل.

الآخرة هي تمام معنى الفلق؛ ظهورٌ بعد استتار، وحياةٌ بعد موت، وعدلٌ بعد التباس، ونورٌ لا يعقبه ليل لأهل الجنة.

هناك يعرف الصابر كم كان محفوظاً، ويرى المظلوم أن دموعه لم تسقط خارج الميزان، ويكتشف المؤمن أن كل استعاذة صادقة كانت مسموعة، ولو اختلفت صورة الإجابة عما تخيل.

الإيمان بالآخرة يمنع لحظة الدنيا من أن تدّعي أنها النهاية. قد ينتصر الباطل فصلاً، لكنه لا يكتب الكتاب كله.

اقرأها كما لو أنك تدخل بيتاً

حين تقرأ سورة الفلق، لا تمر عليها مسرعاً كأنك تذكر قائمةً من الشرور. ادخلها بقلبك: عند ﴿قُلْ﴾، اجمع لسانك على الصدق. وعند ﴿أَعُوذُ﴾، اخرج من حولك وقوتك.

وعند ﴿بِرَبِّ﴾، استشعر أنك لست مهملاً، بل في رعاية مَنْ خلقك.

وعند ﴿الْفَلَقِ﴾، افتح في قلبك نافذةً للصباح.

وعند ﴿مَنْ شَرَّ مَا خَلَقَ﴾، أودع عند الله ما عرفت وما جهلت.

وعند ﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾، سلّمه ليالي الخارج والداخل.

وعند ﴿النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾، استودعه كل شرٍ خفي، واسأله أن يحل عُقد نفسك وحياتك.

وعند ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، اطلب منه أن يحفظ نعمتك ويطهر قلبك معاً.

ثم اختتم السورة ولا تختم الثقة.

لكلِّ ليلٍ فلق

يا مَنْ طال عليك الغاسق حتى ظننت أن الأفق نسي الضوء، لست مطالباً أن تصنع الصبح بيدك. حسبك أن تتجه إلى ربّه.

ويا مَنْ أثقلتك العُقد، لا تظن أن تشابك الخيوط يعني استحالة الحل. قد تعجز يدك عن معرفة أولها، لكن رب الفلق يعلم موضع كل خيط.

ويا مَنْ خفت من الحاسدين، لا تجعلهم يحجبون عنك المنعم. استتر بحكمة، وتحصّن بالذكر، وتواضع لله، ثم امض في رسالتك. فالنعمة لم تأتك بإذنهم حتى تزول بأمرهم.

ويا مَنْ وجد في قلبه حسداً، لا تياس من تطهيره. ادعُ بالبركة، وانظر إلى نعمك، واعلم أن فضل الله أوسع من المقارنات.

ويا مَنْ أوجعه الشر حتى صار يرى العالم كله شرًّا، تذكر أن
السورة لم تسمَّ الليل قبل أن تسمي رب الفلق. النور أصلٌ في
وجهتك، والظلمة عارضة مهما طالَت.

ليس وعد السورة أن الليل لن يأتي، بل أن له ربًّا.

وليس وعدها أن الشر لن يوجد، بل أن له حدًّا.

وليس وعدها ألا تخاف، بل ألا تبقى وحدك في خوفك.

لذلك قلها حين تصبح، وحين تمسي، وحين يضيق بك ما ترى،
وحين يربك ما لا ترى. قلها لا بلسانٍ يطارد الاحتمالات، بل بقلبٍ
يدخل الجوار:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا
وَقَبَ ۝ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

ثم اطمئن.

ف وراء كل غاسقٍ صبح، و وراء كل عقدةٍ فلق، وفوق كل شرٍّ رب.

وما دام القلب يعرف طريقه إلى الله، فلن تكون الظلمة وطنه
الأخير.